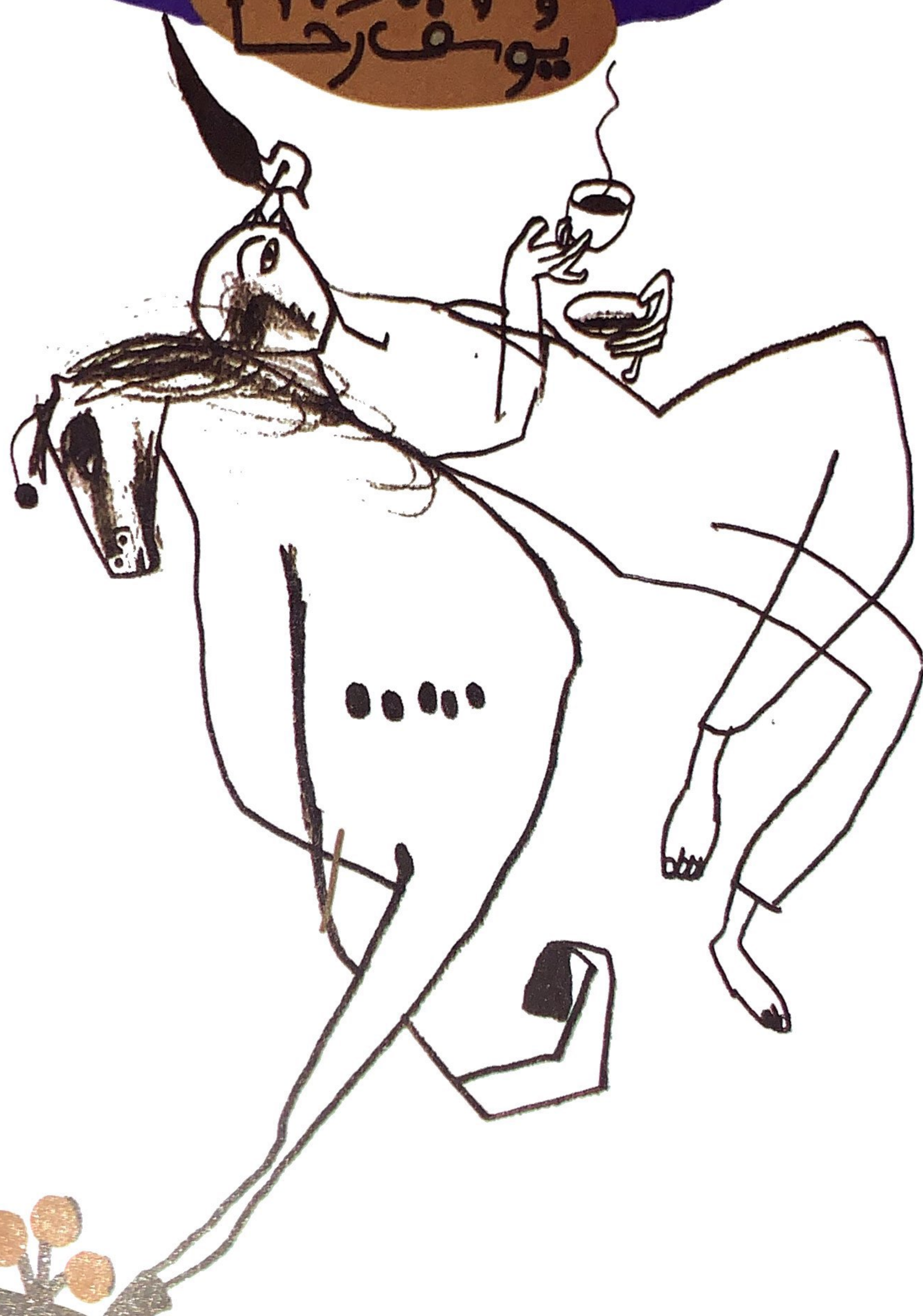
ولكن قلبي:

متنبي الألفية الثالثة

يوسف رخا



التنوير

يوسف رخا

ولكن قلبي

مُتنبّي الألفيّة الثّالثة

الكتاب: ولكن قلبي، متنبي الألفية الثالثة، شعر/ سرد
تأليف: يوسف رخا
رسوم: وليد طاهر
عدد الصفحات: 112 صفحة
رقم الإيداع : 2021/10223
الترقيم الدولي : 978-977-828-06-09
الطبعة الأولى : 2021

الناشر
دار التنوير للطباعة والنشر
مصر: القاهرة 2- شارع السرايا الكبرى (فؤاد سراج الدين سابقا) - جاردن سيتي
هاتف: 002022795557
بريد إلكتروني: cairo@dar-altanweer.com
لبنان: بيروت - بئر حسن - بناية فارس قاسم (سارة بنما) - الطابق السفلي
هاتف: 009611843340
بريد إلكتروني: darattanweer@gmail.com
تونس: 24، نهج سعيد أبو بكر - 1001 تونس
هاتف وفاكس: 0021670315690
بريد إلكتروني: tunis@dar-altanweer.com
موقع إلكتروني: www.daraltanweer.com

يوسف رخا

ولكن قلبي

متنبي الألفية الثالثة

شعر/سرد

التنوير

آفاق
الصندوق العربي
للثقافة والفنون

بدعم من
الصندوق العربي للثقافة والفنون - آفاق

إلى قسمت ومراد

1
الديوان



وبـي مـا يـذود الشِـعرَ عنـي أقلُّـه

ولكــنّ قلبــي يــا ابنــة القــوم قُلَّــبُ

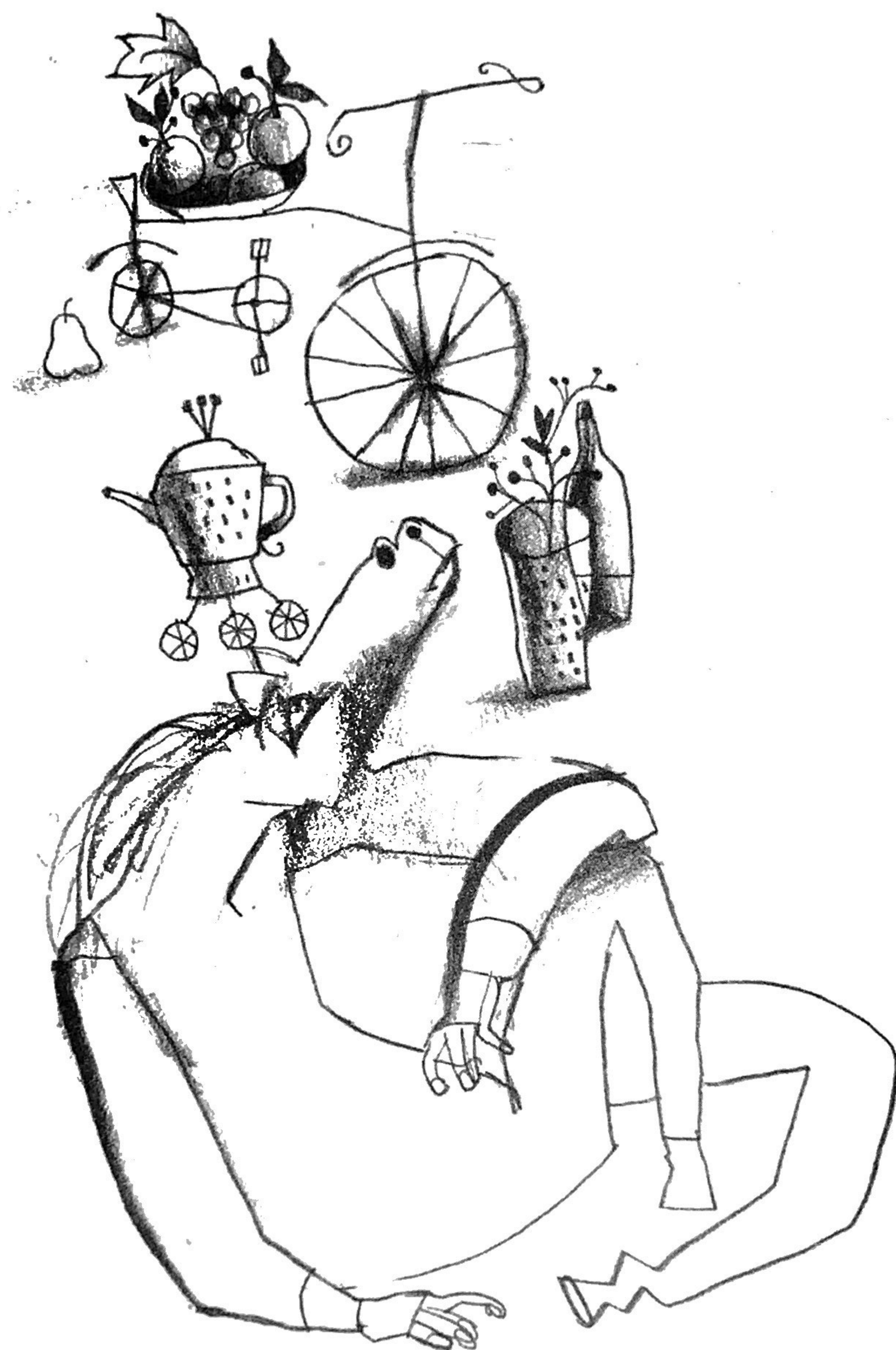
حيث يجب أن يكون عمودي الفَقْري ليس سوى قائم معدنيّ يستقبل الإشارات، جسمي يتهالك من حوله. ولقد ظننتُ على الطريق رِفاقًا فإذا هي قَفرٌ لاسلكيّ. حتى الأيام التي عوّلتُ على إنصافها لم تكن إلا صناديقَ زُجاج على أكتاف غيلان تترنّح. يمكنُكِ أن تتأكّدي بنفسك. الغاوون الراغبون في اتّباعي يَفقدون رؤوسَهم على شَفْرات نعالٍ عملاقة، الرملُ في عيونهم. وأنتِ لستِ كمن حسِبوا الطَرَب فرحًا فقط فأخطأوا الشِعر في الأغنيات. الخطوب قبْضاتُ غيلان على قلبي المنتفضِ كسَمَكَة خرجتْ لتوّها من الأعماق، لولا الإشارات السارحة في ظهري لَأخرَسَتْ نبضاتُه التي تَضحك وتُنهنِه صارخةً مهما تجاهلها الحُضُور. الطريق تتلوّى أمامي، ترتقي سلالمَ أبعدَ وأعلى من عزم الأمواج العاتية. وعلى السمكة أن تظلّ ممسوسةً بالكهرباء. اسمعي. ذات يوم حين تنسحقُ عظامي وتكون تحلّلتِ البقيّة، سيلاقيكِ القائمُ المعدنيّ منتصِبًا يَنفض عن صلابته الصدأ في الأعاصير. حاوِلي أن تَطربي لغنائه.

ومـا أنا وحدي قلتُ ذا الشِـعر كلَّه

ولكـنْ لشِـعري فيكَ من نفســه شِـعر

وتهاوى. وسْطَ مستعمرات الرمل شيءٌ بجَيبي يُطقْطِق. الشمس مِثقَبٌ في الدماغ لكنْ وقفتُ أتقصّى. لم تكن خاصيّةً للمحمول ولا حَصىً مندسًّا ولا خريطة ناطقة تَصيحُ منذ الأبد بكلام كلُّه عربي وكلُّه غير مفهوم. الطقطقة في جيبي هي صوت شاعر يُدمدم. ما كنتُ أقيم على الجمر له، يقول. ولاحقًا: أنا الغابة في غابة وحدي[1]. دهرٌ سيمرّ وأنا لا أعرِف معنى الما، هل هي نافيةٌ أم موصولة. أستوعب أنّ الغابة كلمة أيضًا، ليست فقط تضاريس. أنا في الرمل لكنّ لي عمرًا أُناوِر عبر مِدقّات تُظِلُّها أشجارٌ مَرَدة. لم أسمع بالشاعر ولا اسمِهِ الأكاديّ، فكيف عرفتُ أنه كَتَبَ لأُجيزَه؟ وحين أواري يدي في جيبي لا يَصدِمُني أنها تَقبِض على فمٍ. فمٌ صحيحٌ فاغرٌ، لا وجهٌ ولا رأسٌ ولا حتى شاخصٌ شَبَحيّ. فمٌ وَحده بلسان وشفتين خَضِلَتين تنبِسان، صاحبه مات لكنّه يُنشد شيئًا. ما كنت أعيش لأسمَعَه.

(1) عبارتا «ما كنت أقيم على الجمر له» و«أنا الغابة في غابة وحدي» من قصيدة «قارئ الكتاب»، مفتتح مجموعة «حامل الفانوس في ليل الذئاب» لسركون بولص.



ذَكَـرتُ بـه وصـلًا كأنْ لـم أفُـز به

وعيشًـا كأنّـي كنـت أقطعــه وثبـا

لأنّ الهوى إمّا حنينٌ أو نجاة، وأنتِ دائمًا على الطَرَف المقابِل. كأنّ الحِقَب يا حبيبتي منازل: كلّ منزِل أتشبّث بترابه مُرتَعِبًا حتى يحمِل متاعَه ويوليني ظهره بلا كلمة وداع. حتى مكان السَكَن شخصٌ مُسافر؟ ولقد حسِبتُني مُثريًا لمّا راكمتُ الدفاتر، لكنني لا أتعرّف في صفحاتها عليّ. مَن يصدّق؟ أربعة وأربعون عامًا حتى أعرف أنّ المخازي قِفار: كل المَحَطّات التي شهدتْ مواقعي الآن سَوْءاتٌ مكشوفة على النواصي. لكنْ وَخَطَني الشيْب وعكّرتني الخطوب فلِمَ لا أسوق بي إم دبليو؟ وحين أستعرِض مناقبي لا أسمَعُهم يهتِفون باسمي وهم يرقصون. حتى أنتِ دونَك البحرُ وبضعةُ شواهق. مَن عَبَر طَريقًا أمسى هو الطريق. والحياة أرنبٌ يثِبُ ولا يدري. صِرتُ سبّاحًا، تخيّلي! كهلٌ بمايوه ونظارة مياه يَرتاد بِركةً يلهث على حزّها. يَفزَع من نومه إذ يحلُم بأنّه بلغ الأربعين، كأنّ حياته الحاصلة كابوسٌ كلُّها. ولدى انتصاف الليل يغسِلُ الصحون.

فبعـض الذي يبـدو الذي أنـا ذاكر

وبعـــض الـــذي يخفـــى

علـــيّ الـــذي يبـــدو

ثم انتصب العُنُق. تداخلتِ الوجوه. كانت الحركة منتظمةً مثل دَقّة دُفّ والقَمَرُ لمعةُ مَعدِن في مَفازة. ولِوَهْلة ظننتُني فِعلًا على صهْوة وأنا أقاتل. بدتْ لي الأصواتُ الساهرة رفاقَ حربٍ وقد رحنا نطلُبُ المجد بمنتهى الجديّة، دعكِ من أننا لن نجد سوى طفلٍ ميتٍ وبِضع حافلات. الحقيقة: لو قارنتِ كلامَنا إذّاك بمَن مشى البحرُ نحوه إلَخْ، تجدينا الأكثر نَزَقًا في المبالغة. كانتِ الشاشة ساحة نِزالٍ وكنا ميليشيات. وكانت مقهى ونحن نرمي الزهرَ فمًا على فم كما يقول أحدهم ويغنّي في وداع الله[1]. كانت فترينةً بَخسًا نجلِس القرفصاء وراءَها مِثلَ قرودٍ متحفّزين، نُدلّل على أنفسنا ونحن لسنا بضاعة. لا نَخرُج إلا لنقرع أعمدة النور بموبايلاتنا ونصرخ. وحدَكِ تعلمين أنني كنتُ أطوي، يعني: أطبّق بطني حتى لا أحتاج إلى الزاد الذي يُعذّبني غيابُه. هكذا يفعل الذئب حيث لا توجد فريسة. ومنذ طعِمتُ لم ينقطعْ وابل السباب.

---

(1) عبارتا «فم على فم» و«وداعًا أيها الله» من قصيدة «مقعد راكب غادر الباص» لوديع سعادة.



ولقد بكيتُ على الشباب ولِمّتي

مُسْوَدّة ولماء وجهي رَوْنق

هكذا خَلْفَ السور وأريجُ المِلح في أنفي يصِلني نَغَم الأغاريد مترَقرِقًا ومكتومًا. وقد اختبأَتُ صاغِرًا ولكنّي أبكي. أهفو إلى نشوةِ الأقراص وطبولٍ إلكترونية تَرُجّ القفص الصَدري لا أُطيقُها. لأنّي أَجهَل ما أكون ولا أكونُه. وكَمَن يُطالع ألبوم تصاويرَ أسأل: أم أنّ الذي كان طفلًا سواي؟[1] فيه سوادٌ يكسو رأسي ونَضارَة حوْلَ عينيّ. وفيه أنفٌ أدقّ من أنفي بعشرين سنةً تُنئيني عمّن أراه. لكنْ يَبهَرُني ماءُ وجهي حيثُ الحفلة قُدّامَ ما أنا خلفَه وجِسمي يَطفحُ فُتوّةً وصوتُ البحر. كم هو صابِحٌ وأنا أَدمَع. فقط لا جِلدَ على جِلدي ولا نَفَسَ في أذني وأَبخِرَةُ المُدام تغادر مسامّي مثلَ أحِبّة مُعْرِضِين. كأنّي سافرتُ عشرينَ سنةً إلى هذه النُقطة. أو كأنّي رَجَعَتُ قاطِعًا نَفْسَ المسافةِ لكي أَبكِيَني كما كنتُ لحظَتَها بكلّ براءتي وحِرماني. أنا لستُ ما ظننتُني أعرف أنه أنا أو أريد أن أكونه. أنا هذا البكاء.

---

(1) عبارة «أم أنّ الذي كان طفلاً سواي»، وتتبع «هل أنا كنتُ طفلاً»، من قصيدة «صورة» لأمل دنقل.

فكيـف أَذُمّ اليـوم ما كنتُ أشـتهي

وأدعـو بمـا أشـكوه حيـن أُجـاب

عَشْرُ عُلَبِ سجايرَ غولواز أزرق في المطر. والجَسَد الذي يُمكن احتضانُه على بُعد خمسِ ساعات. في البَلْدة ذات الزُهْمة عَطَنٌ كأنه الكلور المُبَخَّر. والمطر غَرَقٌ حقيقي. طالِبٌ تُجَفِّلُه الوَحشة إلى فَلَوات مكْتبةِ الجامعة صَباحَ مساءٍ، يَقطَع دهاليزَ ثلجيّةً صوْبَ دُكّان التبغ ويسأل: هل هذا ما غادرتَ من أجله؟ طالِب يَستبصِر الفاقة في أرْفُف المتاجر المكدّسة. رغم الجار والزميل، لو تأخّر المصروف يومين تُعوِزه الورقةُ ذاتُ الجنيهات الخمسة. كأنه ابن السبيل يَستنبِح قومًا لا كلابَ لهم. وكلما أعياه الصمت انقسم إلى شَخصين أحدُهما يسأل الآخر: هل هذا ما ساوَمْتَ أهلَك من أجلِه؟ عشر علبٍ وهو يَعرِف أنّ الليل لا يَجِنّ حتى تنطفئَ البلدة ذات الزهمة مِثلَ شُعلة في الكثيب. والبِيرة المُراقَة غَمْرًا لا شطوطَ له لن تُفلِح في كشط الجير عن قلبه. كَفّ المطر فحَلّ علبةً يسحَب سيجارة. ولمّا أغْمَضَ ليُشعِلَها زَلِقَ بين بلاطتين.



ولُــولا أنّني فــي غيْــر نــومٍ
لَكنــتُ أظنّنــي منّــي خيــالا

ولكنّ قلبي سَمَكَةٌ والحُبُّ كالتاريخ. عَطَش الشعوب هامشٌ في سِجِلّات الغيلان، أولئك الذين تَسقُط الأيامُ عن أكتافِهم كمساكنَ تتفجّر، أو عواصمَ طَوّقَتْ أعناقَها الكريهة. إنهم رعاديدُ كُذَّب. ليس على الأرض سوى ما تُسَجّل أصابِعُهم حين لا تَطِقُّ فرقعاتُها تَصُمّ آذانَنا عن النحيب. شِشْ! هل تسمعين فجيعة العالم؟ هل ترينْهم يقذِفون البَشَر في الهواء ليعودوا يلقَفُونهم ويقذفونهم مِثل القواريرِ في يديْ بهلوان؟ إنهم يُوَشّون قُماشة الواقع. بُهْمٌ يَذيع صيتهم على الشاشات وأنا الذي التقمتُ جِذرَ الكلام أَبِيتُ بلا اسم في سِجِلّات الفصاحة! كم كلبًا يتغوّط في... شش! العالم كُستُبان. ولقد خرجتُ فعلًا على أساطين العشيرة. في هذه الأنواء طيورٌ تسقُط من السحاب صريعةً. أينما وَلّيتِ ناسٌ تُسخِّم وجوهَها وتبكي. الموت طائرة بلا طيّار. ونحن لسنا سوى المادة الخام لإعلانات السوشيال ميديا، أليس كذلك؟ لكنّ الحب فعلًا كالتاريخ. أعِدُكِ. في انتفاضات قلبي كل أسرار المحيط.

إذا كان مـدحٌ فالنَّسـيبُ المُقَـدّم

أكلّ فصيـحٍ قـال شِـعرًا متيّـم؟

ثلاثونَ سنةً وأنا لا أعرِف أنّ الظَعْن يعني الذهاب، ولا أنّ حُرقَةَ القَلبِ هذه رُغاءُ ناقةٍ انقضى مُقامُ صاحبِها في صدري. أي زُلفى تصل رُقىً تتدحرج على لساني والوقوفِ بين الموتِ ورائحتِكِ! أنْ يَعلَق النَفَس في الحَلْق وتَبتلَّ النواصي، ويكونُ كلُّ شيْءٍ، كلّ شيْءٍ لأجل عينيكِ. منذ الرابعةَ عَشَرةَ يا حبيبتي وفي قلبي دابّة مبهورة مِنخاسُها شوْقٌ قديم، حتى إنني خَلّيتُ ورائي قِطارًا من المهجورين والثكالى لِئَلّا يظعن مُشتَهَى عن دياري. ولم تكن فجيعتي إلا كلامًا حسِبتُه قلائدَ يحمِلهُا الدهر إلى مَن يَصغُرُني بثلاثين عامًا، ألا تعرفين. أن أكتُب يعني أنْ أقِفَ بين يديك متلهّفًا لنظرة وعُنُقي مُصَفَّدٌ مثل عَارٍ جليب... الذي يَشرَب ويبكي. والذي يتضرّع. والذي يَهرَعُ ثم يقف ليعودَ يَهرَعُ صارخًا في موبايله بالشتائم. الذي يُدخّن سيجارة قبل أن يُلقيَ بنفسِه من شاهقٍ. والذي يبحثُ عن سلاحٍ. إخوتي كلُّهم. كلهم شعراء.



وما استغربتْ عيني فِراقًا رأيتُه

ولا علّمتني غير ما القلبُ عالمُه

يعني كسائر الخَلْق مصنوعٌ من جَيَشانِ الماء ورَجْفَةِ الانتظار.
نَغَمٌ يكفي للاشتعال الذاتي لكنّي في الرابعة والعشرين جِنِيٌّ بي
مُحَلِّق. ألبَس أشخاصًا سَكَنْتُ بيوتهم وأغادِر قبلَ أنْ يُحضِروا
مَن يُعَزِّم عليّ ثُم أتبرّأ للنَّدَى كأيّ نمرود وضيع. ومع ذلك
أُخَلِّف في صدورهم قِطعةً منّي فأُضطَرّ لإعادة تركيبِ نفْسي،
ألا ترين؟ أجنحتي جواهر. لهذا أظلّ وحيدًا وقاسيًا وقد
مات أبي. أنا غريبٌ فعلًا[1]. وبين البلدة ذات الزُهمة والربوة
حيث اندفَنَ، أخلقتْني الطريقُ وأنا أحمِل المِزاج كسَقّاء من
الفردوس. فمِن غُرْزَة الحشيش في السوق القديمة إلى منزل
الأديب في الضاحِية، ها أنا أُسرع مثلَ فريسةٍ يُلاحِقها مَكّوك،
في صندوق سيّارتي بانجو يكفي لِسَجني رُبعَ قرنٍ. أحلم بأنّ
النَغَم يقتلُني فأموت. وأراني بين كاتماندو ومراكش، أو على
كورنيش بيروت. كُنّ جميلاتٍ حقًّا وكُنّ يصرُخن من اللّذة.
لكنّ كلَّ شهوةٍ فجيعة وأنا جينز مهلهل. وقد ماتَ أبي.

(1) «فأنا مازلتُ وحيدًا وقاسيًا/ أنا غريب يا أمي» نهاية قصيدة محمد الماغوط «أغنية لباب توما».

وضاقتِ الأرض حتّى كان هاربُهم

إذا رأى غيــر شـــيءٍ ظنّــه رجــلا

ويومَ سَقَطتِ الأجساد كانتْ قَرابينَ لأنّ الله نَزَلَ فعلًا، نزل من عَلْيَائِهِ فعلًا على هيئةِ مظاهرة. وحتى الذين يُسقِطُونها استَحَالوا أجسامًا نورانيّة في أماكنهم. هكذا في الرابعة والثلاثين انجابتِ السماء لتَفرُغَ الطريقُ من غِيلانِها دونما تُمطِر زُجاجًا. كم كانتِ الأرض واسعةً يوم انسكابِ الماءِ الأحمر. فجأة لم تَعُد أيامُنا صناديق بل انقلبتْ كواكِبَ نُفَسِّر وشائجَها فتُنبئ بالسُعُود. لم أَستغرِبْ نفسي وسْطَ الملائكة. وحتى حين ارتدّ الكلام عَجيجًا ورجَعَتِ الغيلانُ تترنّح بمزيدٍ من القسوة والصَلَف، لم أَحسَبْهم تافهين إلى هذا الحدّ. فقط باتتِ المَصَارِعُ أنصابًا والتَطوَافُ قَهرًا آخرَ. كانتِ الأيام تتهشّم بسرعةٍ جعلتِ الأرضَ بحرَ كُسَارَةٍ فدَمَتْ أقدامنا حتى شَقّتْ في الأديم أنهارًا وخَزّانات. وضائعًا ظللتُ أبحثُ عمّن يراني في الضوء الأبيض، يرى رَوعي وحَسْرَتي. هكذا يجري المقاتِلُ هَرَبًا من رفاقِ سلاحِه ليس العدو، يَندُب يومَ لوى عُنُقَه نحو أسفلتٍ مُخَضَّب يتلمّسُ أقدام الله.



يُخيّـل لـي أن البـلاد مسـامعي

وأنـيَ فيهـا مـا تقـول العـواذل

رَحْلي خفيفٌ في منامات السَفَر. على مسرح الجريمةِ لا رفاقَ ولا طريق. فقط قاتلي الذي لا أراه. أكون على حافّة سريرِ أنتيكا وحقيبةٌ كبيرةٌ فوق رُكبتيّ. شتائمُه لا تَلِج دماغي حتى تزايِلَها: يا مفضوح! إنني عارٍ فِعلًا، وقميصي يُرفرِف تحت سَقفٍ سامِق. تهبِط قطراتُ دَمٍ سمينةٌ في اضطرابي، تداني يافوخي تترَجرَجُ لكنها تَعودُ تَعلو وكأنّ كلًّا منها يويو بخيطٍ خَفيّ. لا تَبلُغُ الأرضَ أبدًا. في الليالي الرائقة يُصاحبني حِصان. يكون من الصِغَر بحيث تسعُه راحَتي لكنّه أشهبُ سابح، ولا أَشكُّ لحظة في إمكانية امتطائه. مع هروب الضوء أسمع قاتلي مُقبِلًا فأفتح الحقيبة لأرى مَطَارًا بحجم صندوق كازوزة. فوق ركبتيّ سوقٌ حرة ونقاطُ تفتيش، سُيور أمتعة. تُقلِعُ طائرات. أتناولُ البوردنغ باس وأنا أفكّر أنّ القتل عَمَل يومي وأنا قادرٌ عليه. بالخيل والخُيلاء خيال الناجين. لأنّ الرَحْلَ سَرجٌ وسَكَن. قاتلي ميّتٌ وأنا أملأ استمارة الجوازات.

وكم من جبالٍ جُبتُ تشـهَد أنّني الـ

ــجبالُ وبحـرٍ شـاهدٍ أننـي البحـر

في الدفتر المطمور داخلَ صدري أكثرُ من حُلّة للسماء. أقلّب الصفحات لأتفقّد ألوانَها. الأحمر لا يعني الموتَ دائمًا لكنّ الأخضر عادةً نبات. وبين الزَهريّ والبُنّي مَلمَسٌ أو عبير، لا أَكاد أَحِنُّ إليه حتّى أَخزَى. أنا عمِلتُ هكذا مع هؤلاء؟ في الخَلوة أُطالِع الدفتر فيوحِشُني المنظر بريئًا ممّا جرى. بالبرق مع زُرقةٍ كالنوم أو بِرِمالٍ تجعل الجَوّ ذَهَبًا يخنُق، بزَبَدٍ قُطْنيّ خِلْوٍ من الأمواج. الضوء يَخبِل حقًّا. وكنتُ وساحاتُ الوَغى تنتزِعُني كلّما ودّعتُ خَصمًا حرّرتُ صفحةً بالنَجيع. السماء مطمورة في صدري، معقودة على الانتصارات. لكنني اليومَ عَارٍ أمام المرايا أتحسّس جراحي وأجثو. لأننا الناسُ الذين عوّرونا يا حبيبتي، الذين أودعناهم نصالنا قبل أن تجِفَّ دموعُنا عليهم. ونحن دفاتر الأعوام تصبِغنا حُلَلُ الأرض حيث نبذُر الفيافيَ بالمعجزات. نُعانِق الصفحاتِ حتى تصيرَ صدورَنا. مَن سَبَحَ في البَحر باتَ ماءً مالحًا. ومَن صَعِدَ الجبل تحوّل إلى هواء.



وكنـتُ إذا يمّمـتُ أرضًـا بعيـدةً

سـريتُ وكنـتُ السـرَّ والليـل كاتِمُـه

وكأنّي قاتلٌ فعلًا، الرعشة إذ أواجه ضابط الجوازات. فمي الملآنُ دُرًّا يتعثّر في التحيّة. هكذا الإقلاع كلَّ مرّة. دونَ أنْ يَدلهمّ شيءٌ، ظَلَامُ المَسَارات. فكلّما هَفَوتُ نَأَمَتْ سرينة تَطعن الوَلَه في صدري. وحيث يومِضُ قِمعٌ أحمرُ تتلاحق الخُطى ضربَ نارٍ. لأنني جُبلتُ على الوَجَل يا حبيبتي. قلبي نفسُه ضربُ نار. وحتى فوق السحاب مُهجةٌ هَمُّها مُهجتي. الخيل والليل مقصورة الدرجة الاقتصادية على إيرباص ركِبتُه لأَهْرَب، أما البيداءُ فهذا القَفْرُ المكتظ حيث مصابيحُ المركبات قَنًا تُمزّق الهواء. ولقد وصلتُ ولكنّ خلفَ المصاريع ساديّين سَفَلة، الموتُ أهون من ضيافتهم... ليس سيرَ الليلِ وحدَه. السُرَى شوارعُ لا تؤنِسُ رَغم أعمارٍ مضت في عَرَصاتِها. وهو مشيٌ بلا وِجهة بديلٌ عن الانتظار. السُرى فِرارٌ من عِقاب خيالي حين تكونين جريمةً لا شهود لها. الاختباء خلف أسوار الحفلة خيرٌ من الحفلةِ حقيقةً، لأن النَغَم لا يترقرق حتى يخرِق الجدار.

وإنّـي لَنَجـمٌ تهتـدي بـي صُحْبتي

إذا حـالَ مـن دونِ النجـوم سَـحاب

مثلًا: قِرشٌ يزْدَرِد أُخطبوطًا حيث المَسيرةُ الاحتجاجية سِربٌ من السَلَمون راجعٌ إلى حيث يفقِس بيضُه في الماءِ الحُلو. مثلًا: أدباءُ يتهادوْنَ مُمْتطينَ درافيلَ مُسرَّجةً، يُنادمونَ فلاسِفةً سَكَارى على ضوء ثُعبانٍ فوسفوري. في القارب المتهالك حِرباءةٌ ظننتُها أليفة. لا تعرف إلا الجوع. ها هي تسْتطعِمُ دمي نبيذًا فوقَ أغصانِ المُرجان. تطلّعي! تحتَ عُبابٍ كَتّانيّ حيتانٌ نائمة، غَطيطُها رَدَى قارّاتٍ من المتديّنين. سُفُنٌ تنوحُ. يُطَقْطِقُ أرخبيل. وبينما القاعُ يتفصّد كائناتٍ أبشعَ من كوابيسِنا، سواحلُ تتخَضخَضُ حيث التيّارُ يحمل مُدمِنًا مُتعافيًا إلى المَسْبَح. مثلًا: كتيبة من عُجُولِ البحر تَشهَر هِرّاواتِها إذ تزحف على مَدْرَسةٍ أجنبيّة، حيث في ملعَب كرة السَلّة فريقانِ من أبناء العِزّ يتضارَبان بوحشيّة مُدهِشة. مثلًا: حنين. يرتدّ قلبي سمكةً من أجل أن تتشكّل الأفلاك أهرامًا وقناطِرَ وسككَ حديد. لأنّ البحر ليس سوى السماء مقلوبةً يا حبيبتي. وفي جسدي العائم ألْفُ مخلوقٍ نبيل.



أمِطْ عنك تشبيهي بما وكأنه

فما أحد فوقي ولا أحد مثلي

وإنّ الدَّرْبَ ليس الدَّرب والأيامَ لا الأيام. وإنّ عَروضَ هذا الشِعرِ عُكّازٌ[1]. ولمعتْ صَلْعةٌ كالتَلّ. هَبَّ زَفير. لا أعرف منذ متى وأنا أَسري سائِقًا بمُحاذاةِ النّهر ولا طريقَ، فماذا أجلَسَ هذا الشاعرَ المغبونَ جَنْبي؟ متى بدأ حديثَه عن العشيرة؟ الذين يُخبِرونَكَ أنّ الشِعر هواءٌ في أُنوفهم، قال. ومع أني لم ألتقِ أحدًا منهم كانوا يَشخَصون أمام عيني أصنامًا تحتمائيّة تُصلّي لأصنام أكبرَ حجمًا وأقربَ إلى الأعماق. في الغَبَش الأسْفلتيّ رأيتُهم مُشاةً متبالِهين أمتَنِع بصعُوبة عن صَدْمِهم. إنني أعرفهم. أعرف الجالس جنبي شاعِرًا وأعرِفُني مثله. قال: أساسُ قِلاعهم الرمليّة أشلاء جَسَد الشِعر نَثَرتْه أيديهم مُقَطّعًا بعدما نَزَعتْه المطاوي. لهذا هم خاصمونا. وكنتُ وأنا أستدعي الأيام الخوالي لأنفُخ مُنطادًا من الأحزان أرى السماء خلّابة ومُرحِّبة. ليس الطموحُ سوى بُعدِكِ عني. لكنّ الشاعر المغبون يؤنِسُني والمُنطاد يطفو فأُصفّق وأنا أرتفع أعلى فأعلى فوق رؤوس العشيرة.

(1) صدى عبارة «بأن النهر ليس النهر، والإنسان لا الإنسان/ وأن حفيف هذا النجم موسيقى» من قصيدة «القديس» لصلاح عبد الصبور.

وإنّ الدَرْبَ ليس الدَرب والأيامَ لا الأيام. وإنّ عَروضَ هذا الشِعرِ عُكّازٌ[1]. ولمعتْ صَلْعةٌ كالتَلّ. هَبّ زَفير. لا أعرف منذ متى وأنا أَسري سائِقًا بمُحاذاةِ النّهر ولا طريقَ، فماذا أجلَسَ هذا الشاعرَ المغبونَ جَنْبي؟ متى بدأ حديثَه عن العشيرة؟ الذين يُخبِرونَكَ أنّ الشِعر هواءٌ في أُنوفهم، قال. ومع أني لم ألتقِ أحدًا منهم كانوا يَشخَصون أمام عيني أصنامًا تحتمائيّة تُصلّي لأصنام أكبرَ حجمًا وأقربَ إلى الأعماق. في الغَبَش الأسْفلتيّ رأيتُهم مُشاةً متبالِهين أمتَنِع بصعُوبة عن صَدْمِهم. إنني أعرفهم. أعرف الجالس جنبي شاعِرًا وأعرِفُني مثله. قال: أساسُ قِلاعهم الرمليّة أشلاء جَسَد الشِعر نَثَرتْه أيديهم مُقَطّعًا بعدما نَزَعتْه المطاوي. لهذا هم خاصمونا. وكنتُ وأنا أستدعي الأيام الخوالي لأنفُخ مُنطادًا من الأحزان أرى السماء خلّابة ومُرحِّبة. ليس الطموحُ سوى بُعدِكِ عني. لكنّ الشاعر المغبون يؤنِسُني والمُنطاد يطفو فأُصفّق وأنا أرتفع أعلى فأعلى فوق رؤوس العشيرة.

---

(1) صدى عبارة «بأن النهر ليس النهر، والإنسان لا الإنسان/ وأن حفيف هذا النجم موسيقى» من قصيدة «القديس» لصلاح عبد الصبور.

عَرَفـتُ اللّيالـي قَبلَ مـا صَنعَت بِنا

فَلَمّـا دَهَتْنـي لَـم تَزِدنـي بِهـا عِلمـا

فكَوْني سائلًا لا يُصيبني بَلَلٌ. وكوني حُزْنًا لا أصبو إلى الألوان. الماءُ جَفنٌ لِجَسَدي أُغمَدُ بِلا صوتٍ حيث أَهبِطُ مستويًا ويائسًا وظمآنَ سوادٍ. هل تعلمين أن الجَفن ليس للعين وحدَها؟ عيناي مِنشفة لجسدكِ المرتعش كطائرٍ قَنَصَه غُولٌ سارِحٌ لكنّه لا يموت. إنهما رعشةُ ذلك الطائر تنثُر دَمًا طازَجًا على خطّ الأُفُق، وهما الضوْءُ يَطفِر لؤلؤًا من جبينك حين انبَلَجْتِ تُجيبينَ أربعةً وأربعين عامًا من الدُعاء. هل تعلمين أن الغِمد أيضًا جَفنُ سيْف؟ كَفّي تعانق الطائر حتى يتأوّد مُلتذًّا بينما فمي على الجُرح يكبَحُ النزيف. وجهي خريطةُ السنين مفروشةً حيث جئتِ: وطؤك أكسجين. ها هو السائل يتجمّدُ سيْفًا يُسَلُّ لطِعان غولٍ آخرَ حيث الماءُ بدلَ الهواء، وطعمُك في فمي وأنا أغطِس. مع انطفاء أنوار المَسبَح وأنفاسي تُبَقبِق إلى أعلى أتأكّد: سأموت قبلَكِ. لكنّك عُمرٌ آخرُ يا حبيبتي. وأنت مِثلي من قَبل أن تَعرفي تعرفين.



وإنّ رحيلًا واحدًا حالَ بيْننا

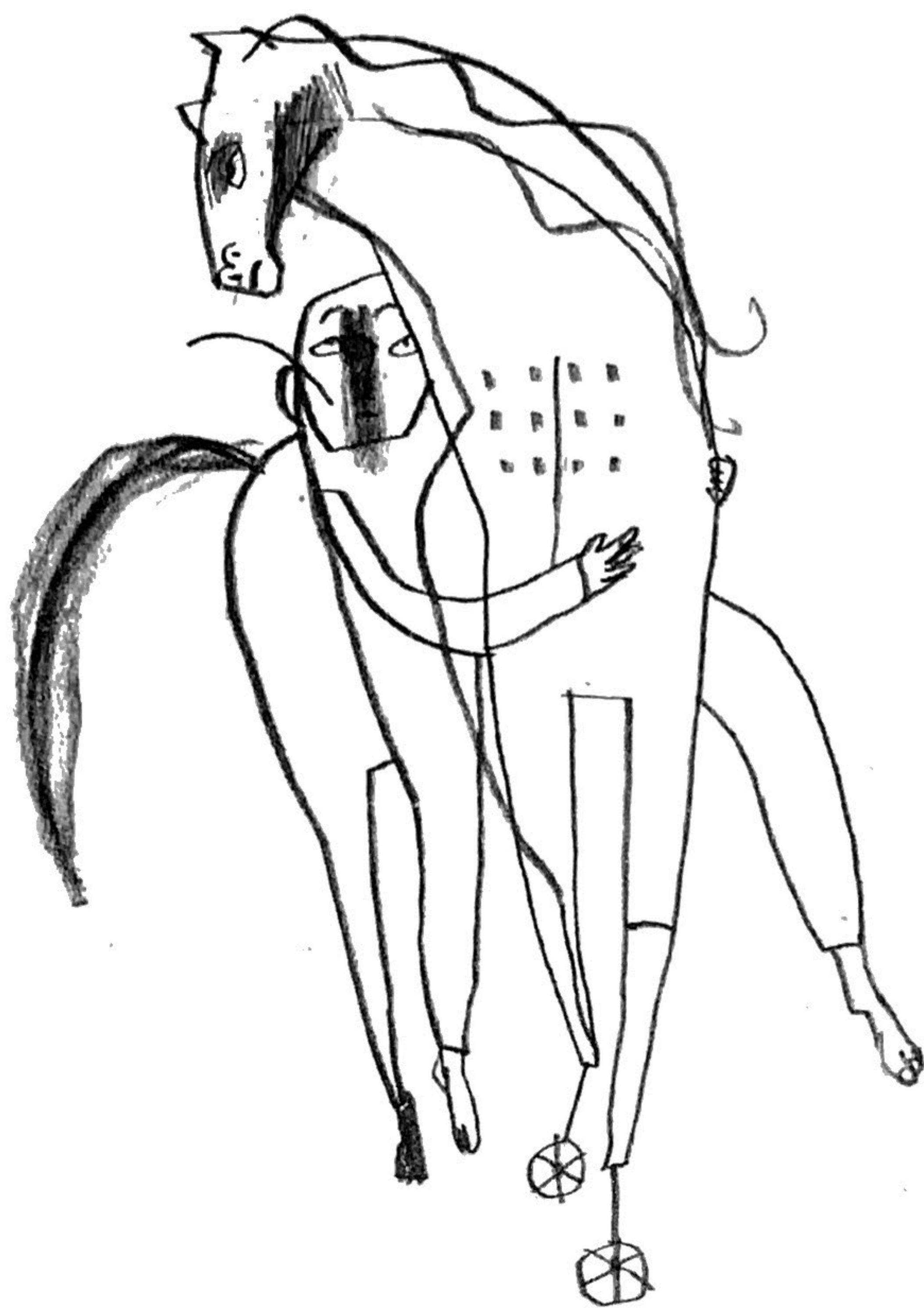
وفي الموتِ من بعد الرحيل رحيل

وحملتُه ميّتًا فإذا بي أُضِلّه بيْنَ أهل الربوةِ مِن المُشَيّعين. وكم كرِهتُ عَويلَهم وأنا أتبع أثَرَه. كانت أسفارٌ مُصْفَرّة تُطِلّ من وسْطِ رماد السجاير. كان كثيب. وفي القبو كانت مطْبَعَةٌ أثَرِيّة على رأسِ عُدّة تغيير العالم. لم يُعِق بحثي أحدٌ من أهل الربوة لكنني لمْ أُصدّق صفاقتَهم. كفّتْ ضحكاتُه فكيف لهم أنْ يواصِلوا العيشَ وإنْ دامَ النحيب؟ كيف للربوة أن توجَد أصلًا! ولقد حملتُ انتحارًا مؤجّلًا وأنا لا أدري. حملتُ وقتًا فاسدًا وخِذلانًا كالأساطير. حين لم أجِدْه على شُرْفةِ ذَهَبِيّةٍ متداعيةٍ طَرَقتُها لأذوقَ شاي عشيقَتِه والعَصرُ أَلْماسٌ في عجين المياه، أيقنتُ أنّي من دونه فعلًا. نَعَم لمستُ جَمالًا زائلًا والعجوز تَحضُنني، وربما لِطَرَبٍ في بكائها سأظل ساكتًا عن الغناء. ذاك الصباح كان نحيفًا لا يكاد يُرى في لَفَّةٍ بيضاءَ على باب جامع. بدا أن الربوةَ تَشهَق من أعماقها. لم أَغفِر. انبثق في صدري مُحيطٌ.

أزورهــم وســواد الليــل يَشــفع لي

وأنثنــي وبيــاض الصبــح يُغــري بــي

أنّ رجُلًا يدخُلُ مقهى وحياتُه تحتَ إِبطِه قد لا يَخرُجُ نفْسَ الرجل. هذا هو. أنّه قد ينسى حياته فوقَ مائدةٍ نحيلة، أو يخبّئها خلفَ مِخَدَّةٍ على مُتّكأ. هذا ما تعرفينه. على الجانبيْن وجوهٌ مُصمَتَةٌ كأقراصِ جَصّ، عيْني تَسُوخ في سوادِها. بل ويَحدُثُ أنّ رجلًا لا يرُومُ سوى دابل إسبريسو وحديثًا يُبصِرُ حبيبَتَه القديمة إلهةً بيْنَ سحابتين. فجأة هكذا. غيومٌ من الصابون تُحيط بكتِفِها بينما شفتاها الضَيّقتانِ تَرسُمانِ نَفْسَ النَظرة. وقبل أنْ يُدرِك أنّ التجلّي شاشةُ إعلاناتٍ، يَعجَبُ كيف أضحتْ ذكرياتُه مخلوقاتٍ ما ورائيةً على الآفاق. رجلٌ صارتْ حبيبتُه القديمة نَجمةَ تلفزيونَ وهو يقودُ سيّارته الحقيرة وسْط أبواق القوافل. إنّ حياته لم تَعُدْ تَحتَ إبطِه. هذا المهم. في منامات الغرام كنا نتمشّى والضوءُ سادِر، كأنّ الليل يمضِغ الشمسَ فينثُر وَهَجَها رذاذًا. خَطَواتُنا متصلّة. وكان بياضُ وجهِكِ يشُفُّ حتى صرتُ أنظرُ إليكِ فأرى الدنيا كلّها.



...

وأهــدى الطريقيْــن التــي أتجنَّــب

كنوع من الترفيه ربّما أو لعلّه علاجٌ نفسيّ. فلولا المياه التي تُراوِغ يديه لِتُغرِقَ البلاطَ ولِباسَه لَما هدأ قلبُه لدى انبلاجِ الصُبحِ في الشبابيك. شخصٌ يُغادِرُ حوْضَ المَطبخِ مُبتلًّا فإذا الخَسَاراتُ التي حاقَتْ بعُمرِه كلِماتٌ ذاتُ وقع. وإذا الثرْوَةُ التي خزَنَها لأولادِه مُعجزاتٌ تَفقِسُ بين غِلافين. حتى لو عَزَفَ عن فِراخِه تُجّارُ الدواجن، ماذا عساه يَصنع بجسدٍ تملأُه الكتاكيت؟ كُلّما غَسَلَ شِحْنَةَ أكوابٍ تراكَمَ مثلُها على الفور. وفي المرايا ذِكَرياتٌ تصيح. فقط لو لم يَشرُد عن خَطّ سيْر العِير قبل خمسةٍ وعشرين عامًا... لكنّ أعمارًا مرّت منذ صحِبَ الوحشَ. ومع أن الملاعِقَ في خاناتها حِذاءَ السكاكينِ وسَطحَ المَوْقِدِ الفِضّي يوحي بالصفاء، ليس ثَمّةَ شكّ. غدًا في غيابه، تتشكّل الآنيةُ المُلَطّخة أشجارًا وأزهارًا وفوانيس. ترتدّ طيورًا خرافيّة تنفِض أجنحة لتُحلّق. إنها تافهة من بلاستك، لكنْ لَو تشبّثَ ببراثنها يمكن أنْ يَصِلَ إلى السماء السابعة.

ليت الغَمام الـذي عِندي صواعقه

يزيلهـــنَّ إلـــى مَـــن عنـــده الدِيَـــم

أربعةٌ وأربعون عامًا حتى أعرفَ أن الدِيمة هي المطر الحنون، ذلك الذي حين يَنزل لا تُصاحبه أصواتٌ مُفزعة، وأن مجيئَه متوقّف على أمزِجَةِ الغَمام. جَرّبي مَرّة أن تُكدّريه، أن تُذكّريه بمتاعبِ الحياة، ولو رأيتِ غيرِ أهوالِ السماء اتفُلي على وجهي. معقولٌ كل هذه السنين وأنا أُكابِر؟ الصواعق التي تُحيلني شَبَحًا مُعتذِرًا يزحَف على أمل أن تَمصّه الأرض، التي تجعل المياهَ إيهامًا بالغرق والجفافَ تعذيبًا بالكهرباء، وحدَه الغمام يستطيع مَنْعَها كما يُرسِل الدِيَمَ غيداءَ وشهيّةً وفرحانةً باحتوائي. أربعةٌ وأربعون عامًا حتى أراها كُراتٍ من الفِضّة تتراقص في أسرابٍ على هيئة طائرة أو حِصان، تتجسّم للقائي. فأعرِف أن الشوق ليس سوى المياهِ التي تَقطُر من أجسامنا حين يعصِرُنا الفِراق. الدِيَم عندي أنا يا حبيبتي. في جِلدة رأسي من الداخل سماءٌ أحاول أن أكون غَمامها. وحتى الأرضُ التي تحملني مجرّد حُجّة لأكتب لك. الآن يَنقعني المطر.

2
الشرح



أقرأ المتنبي في المترو. أضعه على موبايلي لأفعل. في الصباح آكل تفاحة خضراء وأُسرِع إلى النادي. أعوم ساعة وربما أرقد في الشمس ثم أستحم. الوقت صيفٌ وعلي أن أذهب مبكرًا. الفترة المخصّصة للأعضاء الكبار من السابعة إلى التاسعة فقط، بعد ذلك تمتلئ المياه بالأطفال والمُدَرِّبين. طول عمري شخص ليلي لكنّي الآن مستمتع بالاستيقاظ واستنشاق الهواء.

دخَّنت خمسًا وعشرين سنةً قبل أن أفكّر في التوقّف. الآن أَتمّ ثلاثة وأربعين وعندي ولد وبنت. بسببهما رجعتُ أتردّد على النادي. لما بدأتُ أضع علبة سجاير في جيبي كنت لا أُطيق فكرة مكان لا يُفتَح لغير أعضاء متعالين. الأجواء العائلية منفِّرة. ولسنينَ ظللتُ أحس بأنّ الذي يذهب إلى النادي هو الطالب المجتهد الذي أكره أن أكونه. طبعًا ما زلتُ أفضّل جلسة المقهى (الإفرنجي بالذات) لكن لولا النادي أين كنتُ لأعوم أو آخذ العيال الآن.

المحاولات الرياضية بدأت خلال أسابيع من إقلاعي عن التدخين. كنتُ أمضيتُ أربعة أشهر أُقنِع نفسي أن الحياة ممكنة بلا دخان. الالتهاب الرئوي أهلكني وأسعار السجاير في ارتفاع. أكثر من طبيب قال إنّ الوقت حان والعواقب وخيمة. في السنتين الأخيرتين أيضًا زاد وزني بدرجة لافتة. ورغم أني أتحاشى الاعتراف بحجمي، أعرف أني طالما أدخّن لن أستطيع أن أنظّم طعامي أو أغيّر إيقاع حركتي. أشتغل وأسوق وألتقي

بالناس والسيجارة في فمي. آكل وأنام وأصحو بإيعاز منها. ألهث إذا طلعتُ السلّم. وطول الوقت أقرأ وأدخن. ساعات متواصلة على السرير مع الولّاعة والطفّاية وكتاب.

أوقاتًا يبدو لي أني لم أفعل أي شيء آخر بين السابعةَ عشرة والسابعة والثلاثين. سافرتُ وتعلّمت واشتغلت وتصعلكت. أصدرتُ كتبًا وشاركتُ في احتجاجات اتُهمتُ بعدها بأني إسلاموفوبيك وبرجوازي. دخلتُ في علاقات وأنجبتُ أطفالًا وعمِلتُ انهياراتٍ عصبية. كل هذا والسيجارة في فمي.

القراءة هي التي تُشعِرني بأن التوقّف مستحيل. عندي رعب من أنْ يكون الإبداع الأدبي غير ممكن بلا سجاير. لهذا كان ضروريًا أن أمرّ برحلة تداوٍ ذاتي مدتها أربعة أشهر. في البداية توقّفتُ مباشرةً. لم أتعرّف على نفسي وكانت معاناة. بعد ثلاثة أيام رجعت.

الآن أعترف بأن التدخين في البيت ساهم في تأزّم بنتي قسمت. سنُجري لها جراحة اللحمية بعد عام. عملتُ لنفسي مكان تدخين في البلكونة لأكون بعيدًا عنها وأخيها الصغير مراد. لأول مرة في حياتي واجهت حقيقة أن الدخان غير ضروري. وبدأت أَعُد السجاير التي أُشعلها وأنا آخذ وأعطي مع نفسي. أهدهدُها. أقول لها على راحتك. أفهّمها أن الموضوع مجرّد سلوك ميكانيكي مدفوع بقناعة زائفة. لا متعة ولا فائدة. وكل يوم أصدّق أكثر قليلًا أن الأشياء ممكنة بدونه.

ذات يوم في البلكونة أطفأتُ سيجارتي الأخيرة. كنت أعرف أن هذا هو اليوم مع أني لم أسجّل التاريخ. الأكيد أنه ليس قبل عيد ميلادي الأربعين بكثير. عانيت بضعة أشهر بعدها لكنها

معاناة محتملة. أكثر ما يساعد على احتمالها انبهاري بكوني شخصًا لا يدخّن.

لأول مرة أنتبه إلى لياقتي وحالة أسناني وبشرتي فضلًا عن صحة رئتيّ. بعد عام غيّرت طريقتي في الأكل حتى بدأ وزني ينخفض. تخِفّ شوائب الجلد في وجهي. بتُّ أقل عصبيّة وتوترًا بدرجة ملحوظة، بالذات بعد أن فقدتُ أول عشرة كيلوغرامات.

لاحظتُ وقتها أنّ رحلة التداوي كانت طقس تحوّل نصف واعٍ وأنها إنجاز. كانت ركبتي توجعني من محاولات الجري والتّأمّل. اتفقتُ مع الشخص الذي يدرّب قسمت في حمام سباحة النادي وشيئًا فشيئًا، لأول مرة في حياتي، تعلّمت العوم.

وبينما أنا مُحبَط من الشعر المعاصر وضعتُ شرح ديوان المتنبي على موبايلي. هكذا في الطريق من النادي إلى محطة البحوث آكل كوز ذرة مشويًا ثم أركب إلى محطة الإسعاف. الشبكة في المترو ليست عظيمة. من زمان أتجنّب فيسبوك. لسنواتٍ كان هو المنتدى والمقرّ، ولما عبّرت عن قَرَفي مما يحدث بعد الثورة حصلت لي فيه مشاكل. حتى أيام الثورة لم تكن حياتي الاجتماعية صاخبة لكنْ بشكل أو آخر كان عندي حياة. بعد المشاكل التي حصلت في فيسبوك وقَرَفي الشديد مما يحدث ومن أصحابي الذين يَدَعونه يحدث أو يهلّلون لحدوثه لم يعد إلا اثنان أو ثلاثة من القريبين جدًا جنب أمي وأُسرتي. ورغم أن عندي موقعًا أستضيف فيه أعمال ناس من أنحاء العالم وحسابًا على تويتر أروّج للموقع من خلاله، كففتُ تمامًا عن استعمال الموبايل في التواصل الاجتماعي. لا أريد لا تواصلًا ولا اجتماعيات. يكفي أن تكون هناك سِباحة وشِعر عباسي.



في الطريق إلى النادي أتذكّر أني لا أكتب. لا أشعر بالحزن أو الذنب، فقط بخيبة أمل فاترة. أعرف أني لا أكتب لأني مللت الأجواء والاحتمالات. جرّبت كل شيء باللغتين ولا شيء يبشّر بمساحة أوسع أو أصدق. الرائج سيئ جدًا والناس تعمل بهلوانات.

ليست المسألة إحباطًا شخصيًا بقدر ما هي سأم من حدود الممكن. الإحساس بأن كل شيء في الدنيا ضد الشعر. بالذات وأنت هنا الآن لكن أينما كنت. الدنيا تضع أولوياتها في مكان آخر. بدأت أحسّ بأن خيانة الشعر ليست بالضرورة في التوقف عن كتابته. ربما الأسوأ هو التصميم على الكتابة عندما لا يكون لذلك معنى. أعرف أنني آجلًا أو عاجلًا سأعود أكتب. لكن أعرف أيضًا أني مللتُ.

هكذا وذراعاي يضربان الماء أتساءل كيف أصبحتُ شاعرًا في سن السابعة عشرة، أيام بدأت أضع علبة سجاير في جيبي. معظم الناس تنكر عليَّ هذه الصفة لأني أكتب روايات ومقالات. ليس عندي مشكلة في قول إني أكتب شعرًا، فقط أحسّ بكلمة شاعر هذه تبجّحًا ميلودراميًا. لكن الحقيقة أني أرى الأدب كله شِعرًا. ولولا الشعر ما كنت كتبتُ أي شيء.

الآن وأنا أمسك بالحافة لاهثًا لأستريح بضع ثوانٍ بين فترتين أستعيد علاقتي بالكتابة. طول عمري عندي خرم في صدري يوجعني. وجع جسدي حقيقي مع أن الخرم فقط شعور. هذا الوجع هو الذي يجعلني أكتب. ليس لأن الكتابة

تسكّنه أو تداويه، لكنها تحوّله إلى شيء جميل يمكن أن أدعو آخرين إليه. وعندما يلبّي أحد دعوتي يتحوّل الخرم الذي كان يوجعني إلى شباك يرى هو منه الدنيا بطريقة جديدة.

الشِعر يغيّر العالم. وحتى لو لم يقرأه إلا شخص واحد، يظل أثمن وأروع من المنتجات الترفيهية بما فيها الكلام الموزون المقفّى لهذا السبب.

من زمان وأنا أعرف أن الكتابة مثل الحب. تُعرّي جلدك وتُشغّل دماغك لكي تكون مع شخص آخر أو تكون شخصًا آخر. وبهذه الطريقة فعلًا تتغلّب على الموت. الفرق أن الكتابة لا تحتاج إلى علاقات ومساومات ولا تنتهي إلى خِذلان أو إحباط ولا رفاء وبنين. لأن الحب يستتبع ترتيبات ويفرض على الناس اختيارات. الكتابة لقاء غير مشروط. وهي لا تستعمل إلا الكلام. الكلام ببلاش، لا؟

لما كان عندي سبعة عشر عامًا لم يكن هناك فيسبوك ولا حتى غوغل، وكانت الناس تقرأ جرائد ورقية في الصباح. لم تكن هناك قنوات فضائية ولا تليفون محمول. ومع ذلك حتى وقتها كان الجميع يعلم أن الكلام كله فارغ ولا يفيد في شيء. إن لم يكن أداة نصبٍ أو أذًى، فهو مجرّد ضجيج في خدمة أشياء مفروضة علينا جميعًا. وحده الشعر كان يشكّكني في لا جدوى الكلام. يقنعني باحتمال أن يكون للكلام جدوى.

«وعن تدوير ما يمتد في الدنيا إلى كلمات / وعن بسط ما يلتف في نفسي إلى كلمات»، هكذا يقول صلاح عبد الصبور الذي قرأته وقتها. أظن أني فهمتُ أن الكتابة على

غير كل الاستعمالات المطروحة للّغة تضع الواقع في خدمة الكلام وليس العكس. تدعك تنظر إلى العالم بلا مصلحة أو عقيدة. وتُمكّنك من الاقتراب من آخر لتتوجعا معًا بلا احتمال استغلال. لكني توجّعتُ وكتبت سنين والدنيا تتحوّل. لا أحب ما يحبه الناس ولو حدث يكون لأسباب مختلفة. ومع أني لم أفقد إيماني بالشعر، لي شهور والسأم يُقعدني.

على شبكات التواصل أشياء بشعة حقًا. مفزع ما يحدث للقيم والعلاقات. ليس في السياسة وحدها لكن حتى في الفن. الغرام. النضال حملات إعلانية والعدالة سحل في الشوارع. بلا محاكمة. كل الأعراف والميول تُستبدل ببروتوكولات استهلاكية مستوردة في منتهى السطحية والغباء. المسؤولية الشخصية. الثقة في الشريك. الجرأة. الخصوصية. أحلى ما في اتصال الناس ببعض تُبيده الإنترنت بدعم ممنهج. المادة الخام للشعر تتحول إلى ممنوعات. ومع ذلك ما زال الكتّاب يقفون على رؤوسهم ويكذِبون بشكل مفضوح ليكون مَرضيًا عنهم. مكاتب الناشرين أسواق بقالة. والنفسيات كما يقال جحيم. على كل حال لا أحد يريد أن يقرأ شعرًا. ومع أني طول عمري أهرّب الشعر في أشكال أدبية أخرى، أنا أيضًا لا أريد أن أكتب.

عندما أرقد على ظهري متعبًا ومبلولًا وشمس الصيف تعميني أفكّر أن الإيمان بالشعر ممكن ممارسته في القراءة وهذا الأوقع. هناك شعر عظيم مكتوب بلغة أفهمها ولا علاقة له بي. لا علاقة له بما يحصل في العالم. لأول مرة أحس بأني ناضج ورائق بما يكفي لأبدّي القراءة على الكتابة فعلًا.



أقرأ المتنبي واقفًا مع اهتزاز المترو ولا أشعر بالدُوار. خمس دقائق في خمس دقائق، مع الشَرح. أقرأه بالليل لفترات أطول وأحيانًا في النادي عندما أذهب لأعوم. الموضوع مختلف عن القراءة العادية لأنه بطيء ومعمَّق. أنتبه إلى الوزن والغرض. أنتظر البيت الذي يتحوّل فيه الكلام من غَزَل مُجَهَّل إلى مديح شخص. تعلّمت أن هذه النقلة اسمها حُسن التخلّص. تعلّمت كلمة نسيب، وكلما تكررت في أذني شعرتُ بدغدغة لذيذة.

أقرأ الشرح كله حتى وأنا فاهم. في كل بيت تقريبًا كلمة تحتاج إيضاحًا. أوقاتًا أظن أني فهمت وأنا لم أفهم. وفي كل خمسة أو عشرة أبيات بيت فعلًا كأنّه صيني. على عكس المتوقَّع عندما لا أفهم أُستثار. معي دفتر صغير أدوّن فيه أبياتًا وألفاظًا وتفعيلات. على الموبايل أيضًا كُتُب في القواعد والعَروض. ثلاثة تطبيقات مُعجمية أرجع لها. أخيرًا فهمتُ الأوزان وتنوّعاتها. في بداية كل قصيدة أستخرج البحر وحدي، ثم أراجع المعلومة لأتأكد.

في كل الشعر العمودي الذي قرأته لا يشدني من خصيتيَّ إلا البحر الطويل. الوزن الوحيد الذي يركب على نغمة صوت ياسين التهامي في قصيدة هو الحب فاسلم. هكذا أتأكّد منه عندما أتعرّف عليه بالأذن. وحتى في ديوان المتنبي، أحب البسيط والوافر والكامل لكن الطويل وحده يشدّني من خصيتيَّ.

أركّز مع الأبيات الصعبة. بعضها تَمضي أيام حتى أستوعب

تركيبه. للعبارة الواحدة أكثر من إعراب محتمل. سأعرف في ما بعد أن المتنبي أحيانًا يتكلّف، لكن حتى في تكلّفه، عنده خفة تجعله أقرب إلى البحتري من المتكلّف الأكبر أبي تمام. اللغة صعبة كلّها. أتعلّم قواعد لا أعرفها، وأخرى أتذكّرها لم تخطر ببالي من سنين. أعرف نحوًا جيدًا وبعض الصرف. لكن مع التشكيل أكتشف أن كل المُتعارَف عليه وارد أن يكون خطأ. ما تعرفه مكسورًا صوابه مضموم أو مفتوح، أو العكس. لكل فعل ثلاثي حدوتة. والحقيقة أن مدى ما لا أعرفه يذهلني.

الجنون ليس أننا لا نعرف. الجنون أننا لا نعترف بما نعرفه صوابًا. ألف عام ولا زلنا في مساحة قُل ولا تقل. لهذا، وأنا الشاعر منذ خمسة وعشرين عامًا، أجدني للمرة الثالثة أتعلّم لغة عربية.

لكن، وعلى عكس المتوقّع أيضًا لا أتضايق. هناك شيء أخّاذ في اللسان المضبوط المصقول على قديمه. أتفكّر معانيَ منسيّة لأسماء بنات مثل نوال ورباب ولمى. وأتعود على اصطلاحات آسرة مثل أنثني بمعنى أعود، أو بَرَى بمعنى أهلك، أو ندى بمعنى عطاء. الحِصان السريع يسمى سابحًا، أما الحرب فهي الكريهة. لا أفكّر في نفسي وأنا أضيع في دهاليز اللغة العالية كما يسمّيها عارف الحجاوي. كتابتي خارج هذه القضية تمامًا. وهذا في حد ذاته يشجّعني على المجهود المبذول.

أهرب من زمني الشعري، من شروطه المُضحِكة. أهرب حتى من طموحي. أبحث عن كتابة لا تشبهني لكنها تستحق الاهتمام. أليس هكذا يكون الإنسان شاعرًا بحق؟ وكل خمسة أو عشرة أبيات فعلًا أجد بيتًا يوقِف قلبي.

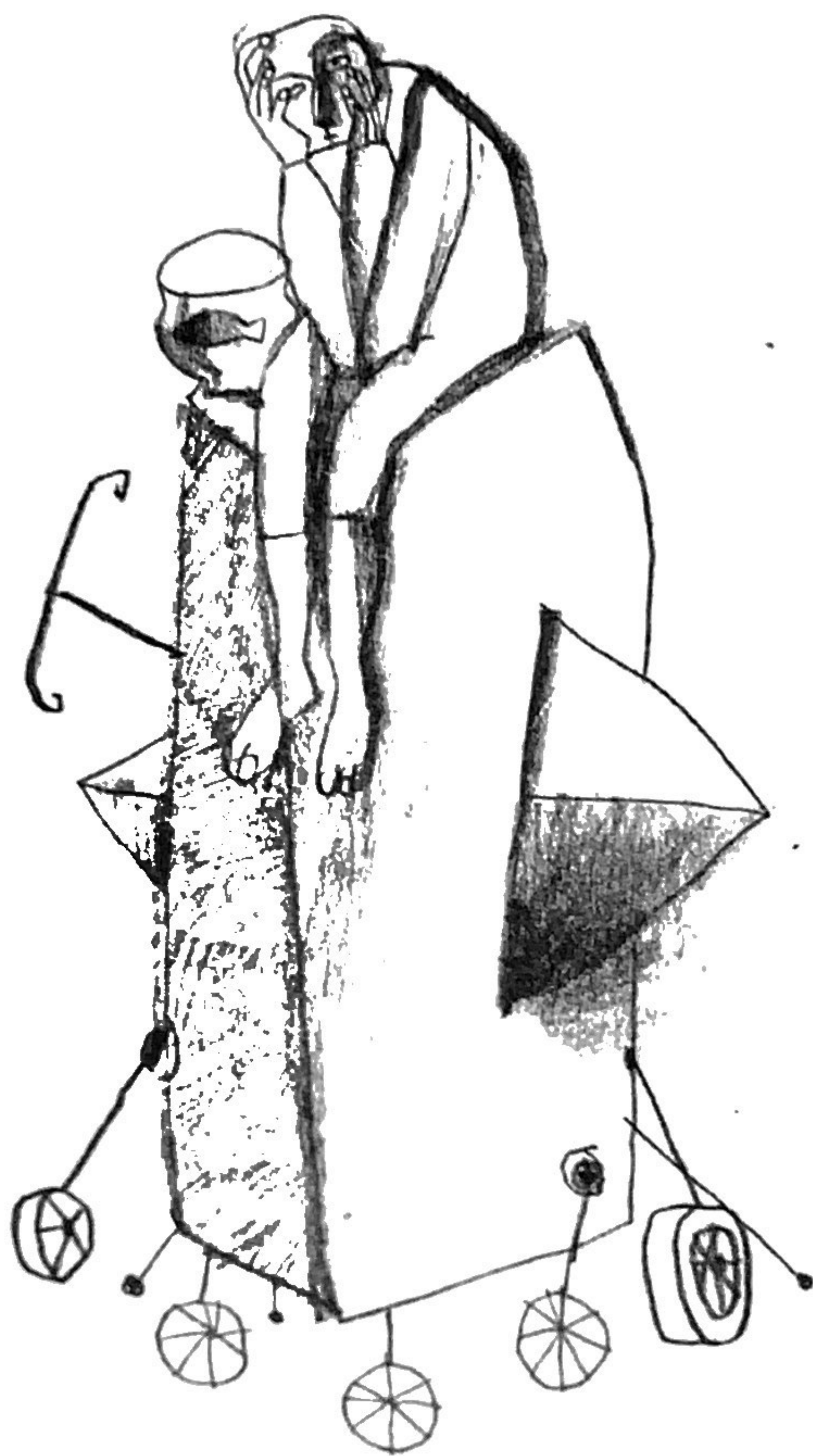
من زمان أحب المتنبي. أفضّله على سواه من المعروفة أسماؤهم عبر مختلف العصور. لم أفكر طويلًا في الأسباب. وعلى كل حال لم أقرأ إلا القصائد المشهورة أو أجزاء منها.

الآن أرى أن الموضوع أبطأ وأهدأ. تحتاج أن تصبر على أشياء ليست باهرة، وتدخل في إيقاع رتيب حتى تصل إلى بيت يضرِبك في وجهك. والذي أكتشفه وأنا أقرأ في الشروح وكتب النقد القديمة أن وجود هذا البيت في الشعر العربي فعلًا شيء استثنائي. القاضي الجرجاني مثلًا وهو يدافع عن المتنبي يقول إن ابن الرومي له قصائد «لا يحصل منها السامع إلا على عدد القوافي وانتظار الفراغ». حتى في أسوأ حالاته، المتنبي دائمًا عنده بيت.

هذا وحده يطمئنني لجدوى الشيء الذي استبدلتُه بفيسبوك على موبايلي. يمكن أن يكون مشهورًا وكليشيه لكنه دائمًا عنده بيت. والحقيقة أنّ المشهور والكليشيه جزء صغير جدًا من المتنبي. الذي أكتشفه مع مرور الأيام موضوع أخطر.

المتنبي رجولة وعروبة وحكمة وهذه كلها أشياء منفّرة. لكنّ المتنبي أيضًا هو القدرة على أن يكون شيئًا مختلفًا تمامًا حتى وهو لا يتعمّد إلا هذه الأشياء. هناك بيت من شِعر الصِبا كما يصفه الديوان. القصيدة كلّها فخر وفحولة. وفي ذلك البيت لا يقول الشاعِر أكثر من أنه دائم الترحال، وأن كلام الناس عنه يدخل من أذن ويخرج من أخرى.

لكنْ اقرأ البيت وقل لي -«يخيّل لِي أنّ البلاد مسامعي، وأني فيها ما تقول العواذل»- هل هذا حقًا كل ما هناك؟



أضع المتنبي على موبايلي وأنا لا أعرف أني بذلك إنما أستعد لمشروع كتابة ليس فقط صعبًا ولكنه شخصي. هذه المفارقة. حَرَنت فاستبدلتُ بالكتابة قراءة شيء بعيد. لكن وأنا لا أدري كنت أعقِد موعدًا لأعود أكتب. بلا قصد في البداية، سأفي بهذا الموعد قبل وقت طويل. لكن ما علاقة المتنبي بالذي يحصل معي منذ أقلعتُ عن التدخين؟

الأزمة أو الجَهَلَة كما يقول السوريون آخذة في التصاعد. وأنا أتفرّج عليها كأنها تحدث لشخص غيري.

لي أصدقاء أربعينيون يهتمون بمظهرهم. قبل بضع سنين كنت أتهكّم عليهم. الآن لا أحد مشغولًا بوزنه وشكله أكثر مني. أعتني بأسناني وأهذّب لحيتي. أصوّر نفسي في المرايا. أتعطّر. أتبختر نحو زوجتي أسألها كيف أبدو.

كل هذا وأنا لا أعرف أن قراءة المتنبي في المترو بداية طقس تحوُّل ثانٍ سيستغرق سنتين حتى أبلغ منتصف العمر كما يُعرّفه غوغل. الأزمة تبلغ ذروتها! هذا يعني أني حتى اللحظة لم أصل. ليس بعد. لكني انجررت إلى رحلة تَدَاوٍ ثانية أعمق من الأولى ما زلت لا أعرف نتيجتها.

هذه المرة ليس هناك هدف محدّد، لكن الذات تحتاج أن تُداوي نفسها من شيء. ألاحظ أني من قبل المتنبي لم أتوقّف عن أن آخذ وأعطي مع نفسي. لا أهدهدها بنفس القدر. ليس هدفي أن أكسب ودها لأُقنعها. أريدها فقط أن تُفهّمني أو تدعني

أفهّمها. كيف وصلتُ إلى هذا المكان وكيف أغادره بأقل خسائر ممكنة؟ أين الكتابة مما أحسّه، وتلك الفكرة الغوغائية التافهة عن النجاح أو التحقّق؟ الإحباط في الاحتمالات والأجواء. والخرم الموجود في صدري لماذا لم ينسدّ بعد كل هذه السنين؟

الأبيات التي تضربني في وجهي تبلور هذه الأسئلة خارج سياق المتنبي. قد لا يكون لظاهر البيت أي علاقة بالموضوع. «فبعض الذي يبدو الذي أنا ذاكر، وبعض الذي يخفى عليّ الذي يبدو». هذا مثلًا مجرد مبالغة في سرد مناقب الممدوح. لكنه يرنّ في وَسَط يافوخي يستدعي أسئلة الذاكرة. انتقائيتها ومحوها أحداثًا. أو كون الحاضر دائمًا غسقًا ملتبسًا بين ما تتذكّره بوضوح وما نسيتَه تمامًا. قد لا يكون الذي تتذكّره بوضوح هذا حقيقيًا. وقد تكون دوافعك الحقيقية في شيء نسيته تمامًا. كل هذا موجود في البيت مع أنه مجرّد مدح مبالِغ قد يُنظر إليه اليوم باعتباره تملّقًا أو رياء.

وفي أخذي وعطائي مع نفسي أكثر من غسق يقلّب فيه المتنبي نور حافلته الآتية علي بسرعتها من القرن العاشر.

أصبحتُ مثل ميكانيكيٍّ هاوٍ يستخرج أحشاء سيارته ليُمضي وقته كله يفك ويركّب قطعة قطعة. حجتي إصلاح شيء لا يبدو أنه خَرِب. لكن هكذا احتياج الذات أو هكذا الرحلة الجديدة. وليس واضحًا إن كانت هذه الحالة سببًا أو نتيجة، لكنها تتزامن مع إدراك الشيء الذي أحبّه في المتنبي. الشيء الذي يختلف جذريًا عن الفهم السائد لشِعره.

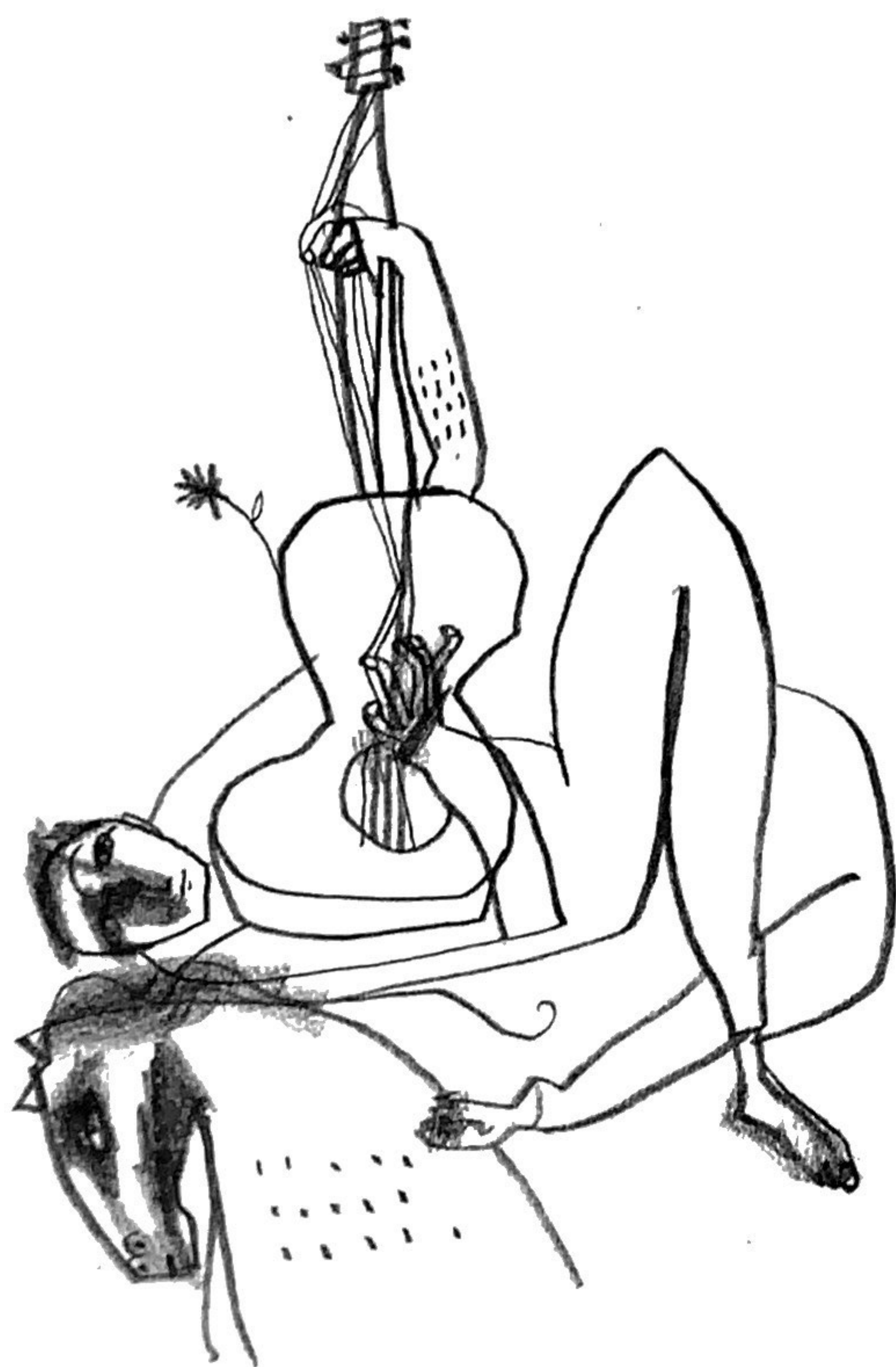
الناس تفهم شعره على أنه يمجّد العنصرية والأبوية والحرب

سواء تعاطفوا مع هذا التمجيد أو لا. لكن الشيء الذي أحبّه أنا هو بالضبط قدرة ذلك الشعر، حتى في عز ما يكون تعبيرًا عن الحرب والأبوية والعنصرية، أن يقول شيئًا آخر. شيء حاضر فيه جمال أدبي وخبرة إنسانية. شيء يتجاوز لحظته ويرتفع فوق معناه ليسافر عبر الزمن.

أنا واعٍ بتلك القدرة منذ بدأت أقرأ وربما منذ قرأت المتنبي لأول مرةٍ. لكنني لا أتمكّن من وصفها حتى أتماهى مع أحد الأبيات - «ليت الغمام الذي عندي صواعقه، يزيلهنّ إلى مَن عنده الديم» - فإذا بنص يخرج مني ليس كأي شيء. ثلاثة أشهر أو أقل منذ بدأتُ أقرأ وها أنا أكتب ولا أدري.

كنتُ راجعًا في المترو والمتنبي على شاشة الموبايل لما خطر لي أني الآن فقط أنتبه لمعنى كلمة ديمة. لم أعرفها إلا اسم بنت. اسم لطيف. لكنّ الإحساس بالغُبن الذي يعبّر عنه البيت اختلط فجأة بفكرة المياه. ولما حصل ذلك تداعت أحاسيس وإيحاءات أخرى كثيرة. العطش والإيهام بالغرق ومنظر السماء في الشتاء. كانت هذهِ أول مرة يقلّب المتنبي علي المواجع. لأني تذكّرتُ أيضًا أشياء مؤلمة حصلت معي في حياتي. وفكرتُ في الشوق والفراق.

في المرة التالية التي تملّكني فيها بيت وجدتني أكتب نصًّا مشابهًا للأول. وخطر لي أن الشيء الذي أحبّه في المتنبي يمكن أن يعاد إنتاجه في قصائد نثر كالتي أكتبها منذ سن السابعة عشرة. ثم بما أني أحاكي شاعرًا عُرف بالخُيلاء وتمجيد الذات، طبيعي أن أجعل نفسي مركز الكون في تلك القصائد.



أذهب إلى العمل وأنا أفكّر في بيت بعينه. «وبي ما يذود الشعر عني أقلّه، ولكن قلبي يا ابنة القوم قُلَّب». بيت لما قرأته بدا لي أني أمسكت أخيرًا بالشعر من زمارة رقبته. عرفتُ معناه. للشعر معانٍ كثيرة طبعًا، لكن الشيء الذي يجمعها ويجعلني أحبها موجود في هذا البيت.

من زمان وأنا أسأل نفسي ماذا يكون ذلك الذي أسميه شعرًا. ماذا يفرّقه عن غيره من الكلام؟ في رواية التماسيح فكرة أن الشعر سرٌّ. «وكنتُ إذا يمّمتُ أرضًا بعيدة، سريتُ فكنتُ السر والليل كاتمه»، يا ربي! إنه الكلام الذي لا يمكن أن يُقال. وفيها أيضًا أن الشعر هو عكس الكليشيه والنكتة والشعار. الأشياء التي تندرج كل استخدامات اللغة تحتها عمليًا. تتمثّلها شخصيات تشبهها كما يتمثّل السر شخص الشاعر.

الشعر عكس هذه الأشياء لأنه يجعل للكلام سلطة على الواقع، نعم. لكنه عكسها أيضًا لأنه يفتح زاوية نظر إلى العالم خارج الإطارات. يتيح رؤية شيء غير المقرّر رؤيته. وبهذه الطريقة يجعلك حيًا.

في البيت المقصود يقول المتنبي إن به من الهم ما يُثنيه عن قول الشِعر من أساسه. لكنه لا ينثني، وهنا العبقرية، لأن قلبه لا يثبت على حال. كأنه يريد أن يقول إن الشعر ترف. كم شاعر معاصر يرى حتى القراءة رفاهية في ضوء معاناته اليومية؟ وأفكّر أن حياتي سهلة بالمقارنة مع كثيرين. لكنّ لي عقدين أكافح آلامًا أحقر وأغبى من أي شِعر.

«أبا المسك هل في الكأس فضل أناله، فإني أغنّي منذ حين وتشرب». حتى أنا أسعى إلى ضيعة أو ولاية كالتي يطلبها المتنبي من كافور. وأكافح آلامًا. لا يهم إن كانت الهبة المرجوّة حقيقية أو مجازية. كلانا مخذول بما يكفي ليعتكف أو ينتحر. فلماذا يظلّ القلب يُنتج شِعرًا مثل ماكينة تُنتج عصافيرَ؟

«سمّي القلب قلبًا لتقلّبه»، هكذا يقول لسان العرب. وعبر القلب تنعقد الصلة بين الشعر والتحوّل. الثورة أيضًا بهذا المعنى مرادفة للشعر. وَجَل القلب وامتعاضه من الركود هو الذي يدفع إلى الاحتجاج. لكن بتوجيه الكلام إلى محبوبة هناك أيضًا تسليم بضرورة الغرام.

هذا العضو المُخصّص للخِفّة والارتجاف إذًا نقطة تلاقٍ ومفترق طرقٍ. وجوده في الصدر هو الذي يجعل الغرام ممكنًا. وهو الذي يمنح الثورة مصداقيتها. وجود قلب متقلّب يُنتِج كلامًا قادرًا على امتطاء الواقع وليس العكس. أن تنظر إلى العالم بلا مصلحة أو تقترب من آخَر بلا استغلال. القلب من هذه الزاوية هو الذي يتيح الحياة. القلب يعني القلق. حتى الخذلان طموح مكبوت، لكن ليس موضوعه بالضرورة مكسبًا أو مصلحة. لمَ لا يكون الطموح في مكان؟ كان الطموح في بلد يعاد اختراعه بعد التضحيات والمصارع. أو في جماعة ناس هدفهم الصادق أن يترفّعوا على رداءة الواقع لا أن ينبطحوا لها. وكل هذا بعيد جدًا عما يحدث.

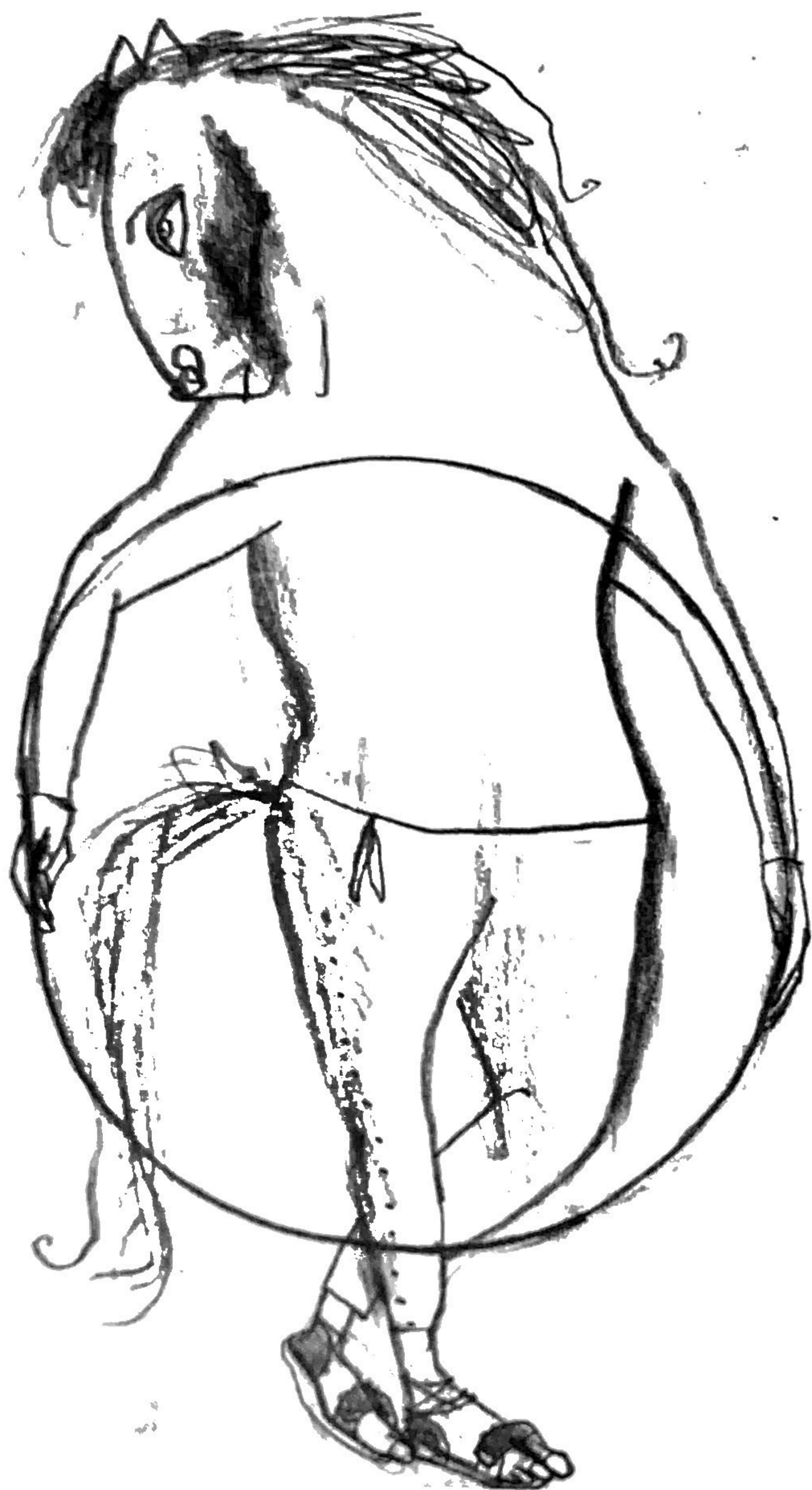
الآن أفكّر أن لا مكان للحقائق الحَرْفية في الشعر. لا معنى للخير والصواب. هناك مكان للحقيقة فقط. الشعر يغير العالم،

وهو يقول الحقيقة. لكن الحقيقة ليست سوى لحظة تَلاقٍ. إنها طرب التعرّف على المحبوب.

لذلك لما قفلت فيسبوك كان الخذلان بلغ ذروته. ليس في مآل الثورة. ليس في مظالم الأمن أو غباء النشطاء. ليس في أي شيء له علاقة بالوضع السياسي المؤلم فعلًا. الخذلان كان في أصحابي من دوائر الكُتاب والفنانين. الطليعة أو النخبة. عندهم تناقضات والتباسات وأشياء تتفاقم أمام عيني من قبل الاحتجاجات، هذا أكيد. لكنّ الخذلان في أنهم، لما جاء وقت الكلام الحقيقي، لم يكن عندهم غير الكليشيه والنكتة والشعار. كانوا غير معنيين بالشعر حتى في عز دفاعهم عن قداسته. وكل ما يهمّهم هو استغلاله في تزكية أنفسهم أو الصعود إلى منصة بنفس الطريقة التي يذمّون الآخرين على اتباعها. الحقيقة أقاويل جاهزة متفق على ترديدها. لا يهم صدقها أو أمانتها. وغير مسموح بأي مساحة للسؤال.

أيامها كنت تنظر لأي مثقّف مشتبك فيريعك حقيقةً كيف يمارس نفس الأبوية المفروض أنه ثائر عليها من داخل هذه الثورة نفسها. لكن الأسوأ أنه أيضًا يحوّل الموضوع إلى حكاية عن صراع الخير مع الشر، يلعب فيها دور البطل ويعطي غريمه دور الشرير بمنطق لا يختلف إطلاقًا عن منطق أفلام ديزني. أي ثورة والقلوب على هذا القدر من الثبات؟ أي حب! وأي شِعر والمشهد كله من زاوية واحدة؟

اليوم تغيّرت رؤوس المواضيع لكن ما زالت الحالة. وأبشع ما في الحالة أن عشر سنين مرّت والنبرة هي هي.



أبحث عن أبيات توقف قلبي وأنا ذاهب إلى العمل في المترو. الصيف سَلّم الوردية لخريف مُشمِس ولا خبر عن كورونا لكن كتفي يوجعني. منذ بدأت أتريض وأنا فاهم أن الوجع ضروري لكسر الجاذبية. الذي هو أحلى شعور. وجع العضلات العادي لا يزعجني. كنت أستلذّه حتى عطبت ركبتي. لا أحب الجري كثيرًا على كل حال. ما يعجبني في الجري هو تلاحق أنفاسي الذي يستدعي طقوس الذِكْر والنبض الإلهي.

أسمع إنشادًا صوفيًا وأقرأ في البوذية وأساليب التأمل. وكنتُ أجري في المساء وأجرّب هذه الأساليب بالليل. فهمت حكاية التركيز مع النَفَس وتفريغ الدماغ لكن لم أصل إلى شيء. طبعًا محاولات الجلوس متربّعًا فاقمت وجع الركبة. لكن في بعض المساءات كان الجري نفسه يتحوّل إلى صلاة. «تجيء لحظات يتوارى فيها الثقل والشدّ حتى يُهيّأ لي أنني طائر في الهواء.» هكذا كتبتُ أصِف الحالة بعد أن توقّفت عن الجري مباشرة. «على ارتفاع شبر أو أكثر عن سطح الأرض، هذا الجسم الذي قضى عمره مثخنًا بالقمح والسكر ومنقوعًا في دخان التبغ يحلّق أسرع فأسرع على إيقاع اللهاث.» ولعل قصة البوذية هذه عَرَض مبكّر لنفس الأزمة.

الآن أتعالج بصحبة المتنبي. على الأقل أختبر دائي. لكن الجري كما أتذكّره نشاط غليظ وحادّ بالمقارنة. فيه تعنيف لجسم يبحث عن راحة والدنيا تتغير. كان الجنيه المصري عُوِّم

فتضاعفت أسعار وانسدّت مصادر رزق. أزمات مالية وترتيبات عمل أتعبت أعصابي أسابيع متصلة.

اكتشفتُ المياه كمن يرجع إلى وطن لا يعرف أنه ينتمي إليه. لم أكتشفها حتى تعوّدتُ أن أكون تحتها وفوقها في وقت واحد. على بطني أو ظهري لا يهم. وحده أنفي يخرج ليلتقط نفسًا عند الحاجة. وفي كون المياه تُخفي جسمي راحة غير عادية.

أقول وطن. الأدق رحم. أو قبر. المياه تغلّفني تمامًا. وطالما أنا فيها أكون محميًّا من تعب الحياة. المجهود وحده يذكّرني بوجودي في الدنيا. مرور الوقت وورود غايات. الثقل والخفة، الحركة والسكون. لهاث بلا عَرَق. لكن حتى المجهود يساعد في تخفيف وزن الأشياء.

أفكّر الآن في المياه كَحَلٍّ نهائي. لو كان النوم بروفة للموت فالعوم بروفة للفناء.

لكنّ في الحكاية شيئًا أقل ادعاء. تعلّمت العوم على كبر ويا أخي فرحان بروحي. أحس بفخرٍ طفوليٍّ وأنا أقطع الجانب العميق من حمام السباحة بثقة وسلاسة. أكثر حمام أعوم فيه في النادي هو نفسه الذي شهد حادثة غرق أفسدت علاقتي بالمياه وأنا في الحادية عشرة. دائمًا أتذكّر ذلك.

قبل هذه المرحلة كنت طفلًا لذيذًا في ما تبديه الصور. في الحادية عشرة ضربتني السمنة. على وجهي برود بهيمي وأنا أنظر إلى الكاميرا. جلافة تداري انعدام الثقة وخيبة الرجاء. منظري حقيقةً منفّر. منفر لدرجة أن الصورة تضحكني. لكن عندما أركّز مع الصبي الذي كنته أكاد أبكي شفقةً عليه.

يوم الحادثة أنقذني مراهق أكبر مني وقعدتُ على حافة

حمام السباحة أتقيأ ماء وأبكي. لا أذكر من التجربة سوى السواد السارح على عيني مع وجع بطن ليس كوجع البطن، ثم الفتور التدريجي لتصميمي على النجاة.

بعد الحادثة لم أسبح. حتى عندما تعلّمتُ أن أطفو وأطمئن، لم يتطوّر الأمر إلى سباحة أبدًا. واليوم اِنظرْ إلى رشاقتي وأنا أمر مستويًا على سطح الماء مثل رياضي محترف. كأني قارب أو تمساح. المشكلة أن كتفي الشمال وجعه لا يحتمل. كأن قطعة من أنسجته الداخلية انخلعت أو تمزّقت. لا أشعر بشيء أثناء العوم. لكن عندما أرقد لأتقيّل يكون الوجع كطاحون دائر. يعود في أوقات غير متوقعة ينغّص علي فرحتي بالمياه. يعطّل محاولة الالتزام بروتينٍ صحّيٍّ. صبرت ثم ذهبت إلى طبيب عظام. صوّرت كتفي بالرنين المغناطيسي.

انتهى بي الأمر عند طبيب علاج طبيعي شاب كنت أستمتع بمسايرته أكثر مما أستفيد بعلاجه. وانقطعتُ عن العوم أسبوعين بناء على طلبه. الغريب أني طول هذه الفترة لم أشك أن طريقة تحريك ذراعي قد تكون هي السبب. لي شهور لم أستعن بمدرّب. حتى عندما سألني طبيبي الشاب إن كنتُ أعوم بطريقة غلط قلتُ له لا أظن. لكن ها هو مدرب جديد يَلفت نظري لأن ذراعي ليس مفرودًا تحت الماء كما ينبغي. لا أحرّك رجليّ بما يكفي أبدًا. وألوي كتفي وأنا آخذ النَفَس. بالتدريج سأضبط تكنيكي كما علّمني المدرب الجديد.

الآن أعوم أسرع كثيرًا لكن ينهدّ حيْلي بسرعة. حتى اللحظة ما زال إيقاعي لم ينضبط بما فيه الكفاية. سيستغرق وقتًا. المهم أن كتفي تحسّن.



أذهب إلى العمل في المترو والمتنبي يقلّب علي المواجع. ليس بشكل مباشر. لكن البيت الذي يضربني في وجهي دائمًا يكون عني أنا. لا أظن أني أفهم شيئًا مناقضًا لقصد المتنبي أو غريبًا عليه. فقط أفهم ما أفهمه بالرجوع إلى خبرتي. أتفكّر كوني شاعرًا وكون الشاعر كالمريض النفسي شخصًا مهووسًا بذاته. من هذه الناحية المتنبي طبيعي أكثر من سواه. «وكل ما قد خلق الله وما لم يخلق...»

يفزعني أن رصيدي من السنين ينفد أسرع فأسرع وقد تجاوزتُ الرابعة الأربعين. وأجد في كلام المتنبي عن أشياء بعيدة وربما كريهة مجازات لوضعي والرحلة التي قطعتها إليه. مؤخرًا بدأت أعي ما يحدث في رأسي. الوقت الذي أمضيه مع مراد وقسمت وفي الأعمال المنزلية كأنه تكفير أو تهدّج. ليس لأني أعتبره عقابًا أو أحسّ بأني مجبر عليه. هو فقط يفتح لي مساحة لأنشّب في جوفي أكثر. وهذا يشعرني أني أكفّر عن كل ما يُخزيني منذ المراهقة.

كنت أبكي كطفل يوم انفردتُ بهما ذاك الصباح في طنطا. أمس حدث انهيار عصبي سِرّي في الطريق من القاهرة إلى بيت حماتي. بلا مبرر واضح. أظن الوقت شتاء. في طنطا لا أكفّ عن المشي. كل شيء تصورتُه عن حياتي منذ قفلت فيسبوك غير دقيق. إنني مستقرّ عاطفيًا، مثلًا. إن الكتابة بعيدًا عن الكُتّاب كفيلة بأن تُشعرَني بالامتلاء. أو إنّ ما أساهم به في الحياة اليومية لأسرتي يكفيني.

الشعور الطاغي أن عليّ ذنبًا. ذنب عميق لدرجة أن له أبعادًا خرافية. بعد تعويم الجنيه لم يعد ممكنًا الاستعانة بخادمة. سفري الكثير أجهد زوجتي. لكن لا يمكن أن يكون الذنب مجرد إحساس بالتقصير. عندي أفكار عما يمكن أن يكون لكن لا أقتنع بأي واحدة منها.

كنا في مقهى ملحق به ساحة ألعاب أطفال والشمس طالعة. وكنت أقرأ وأتابعهما وأنا أغالب البكاء. زوجتي في عملها وحماتي لا تريدنا أن نخرج. لكني هنا الآن وكل شيء تحت السيطرة. في الشهور التالية سأعيد ترتيب يومي بما يتيح رعايتهما والانفراد بهما لأوقات أطول. سأنغمس في الأعمال المنزلية وأنا أواظب على العوم. أمتنع تمامًا عن السفر. ولعل هذا يدفع إلى مزيد من التنقيب في الأعماق.

كنتُ أترجم رواية جون بانفيل. آخر جملة فيها إجابة الراوي المجرم عن سؤال: أي قدر من قصة حياتك التي حكيتَها لنا حقيقي؟

«كل ما فيها»، يجيب. «لا شيء فيها. الخزي فقط».

الخزي نزيف دائم. الخزي المُهلِك تجاه مَن عرفتهم وما فعلته معهم أو فيهم. قسوة الخِذلان والفراق. كيف لم أنتبه لأن الأسئلة والذكريات تدميني؟ في هذه الدنيا فَقْد لا يُحتمل. أحيانًا يكون الموت أرحم. «كأنْ لم يكن بعد أن كان لي، كما كان لي بعد أن لم يكُن». علاقات أقمتُ فيها سنين وخرجتُ منها دون أن أُمَسّ. وأخرى لم تدم أيامًا وسعيتُ مستميتًا لإزالتها. لكنها تعيش فيَّ كفئران تقرض أحشائي.

على كل حال أنا أنزف. طبقات من الجلد تسقط عن لحمي والدماء تتناثر خزيًا وحزنًا بلا قرار.

عندما أقرر أن أقرأ المتنبي سأكون محبطًا من ناحية الكتابة والنشر، هذا صحيح. لكنني سأكون في مساحة رائقة نتيجة الإجراءات التي اتخذتها نحو الأسرة والبيت، بعد الإجراءات التي اتخذتها نحو جسمي. على الأقل سأظنّ المساحة التي أنا فيها رائقة. على سطح الوعي الحياة غيطان وشواطئ. لكن النزيف حاصل من ساعة الانهيار السرّي في طنطا. هذان اليومان كانا بداية تحوّلي إلى ميكانيكي هاوٍ أغرس يدي في بطن سيارتي كل يوم.

اللافت أني لا أنتبه إلى الوجع الذي أحسّه وأنا أُخرج ما تطوله تلك اليد لأكشف عليه. كأن السيارة التي أنزع أحشاءها هذه جسدي. وكأني أستخرج أعضائي واحدًا واحدًا لأعالجه مع أني لا أعرف كيف. أقلّب العضو في يدي وأتطلع إليه من جميع الجوانب. ألكزه. أهرسه لأرى عند أي نقطة ينسحق. أشرّحه بموسى لأنظر إلى ما في جوفه فتُغرقني الدماء ولا أتبيّن شيئًا.

الآن أفكّر في تلك الصورة الرهيبة حيث بنات جميلات في الهوادج والجِمال التي تحملهنّ تمر عبر مكان معركة فتخطو أقدامها على آثار القتال: «وربما وَخَدَت أيدي المَطيّ بها، على نَجيع من الفُرسان مصبوبِ». يُعجبني أن هناك كلمة لا تعني أي دم ولكن فقط الدم الخارج من نقطة عميقة في الجسد: نجيع.

وأنا أفقد جِلدي في البداية كان يتناثر مني دم عادي. لكن أعتقد أن الذي يخرج مني عندما تستفزني الأبيات وأكتب نجيع.



أعوم ساعة وأفكر في الغرق. النوم حيوات موازية. ربما الآخرة هكذا. لكن منذ سن الحادية عشرة وهناك صلة بين المياه والموت. يبدو لي أني عندما أعوم الآن أموت جزئيًا. ليس بمعنى سلبي. الحياة مجهِدة لدرجة أننا نحتاج أن نموت قليلًا كل يوم.

هناك النوم طبعًا. وهناك ما يسميه الفرنسيون الموت الصغير. الناتج عن اتصال ليس له أي معنى في حد ذاته. اتصال حسب نظرتنا إليه يمكن أن يصبح إما زيارة إلى الجنة أو جريمة. نحن الذين نجعله ما هو، هذا الاتصال. ربما حتى نجعله حياة مشتركة. الأرجح أن يكون لا شيء. لكنّه عندما يحقّق لنا الموت الصغير فعلًا يريحنا من جهد الحياة قليلًا كما يفعل النوم. والسباحة. تظل الحياة صعبة دائمًا.

«أحيا وأيسر ما قاسيتُ ما قتلا، والبيْن جارَ على ضعفي وما عدلا». أحيانًا يكون الموت أرحم لأنّ في الدنيا فَقْدًا لا يُحتمل. موتك أنت على الأقل. لأن موت الآخرين مهما ادعينا لا يكون سهلًا أبدًا. طلوع روح شخص كان أمامك ولن يعود موجودًا على وجه الأرض. أعوم ساعة وأفكّر أنه ربما أصعب شيء.

لما مات أبي، بدا أن أزمة حُلّت. كان له عقود شِبه مُقعد بسبب المشاكل النفسية وأدوية الاكتئاب. وفي السنة الأخيرة بدأ جسمه يتهالك بصورة جعلت رعايته مشكلة. لم يكن عجوزًا جدًا لكني في مكان ما تمنّيتُ أن تستريح أمي من عبئه.

ربما أيضًا أن تُحسم التباسات إحساسي به مرة وإلى الأبد. أثناء دفنه كتبتُ نصًّا ما زال يعرّفني كيف صار.

«لحظة مجيء الغرباء / لم أكن قد اتخذتُ قرارًا بشأن قبلة الوداع / والجار يؤكّد لي أن الغرفة ملآنة ملائكة / أغلقت الباب دون أن يخطر ببالي شيء مما صنعتَه من أجلي / سبعة قطعان من المسافرين -وأنا أواصل اختبائي- عقدوا العزم على إيداعك المرتفع / كان غريبًا أن نصبح في البلدة بدونك: بدر ساقط في قلب الصوان (كما وصفت عمتي) وأفواج من الذين يغفرون دون اعتذار، عجائز لا أعرفهم / ينهنهون على صدري / لكنك بالطبع كان لا بد أن تكون غائبًا / يوم راجت بضاعتك».

لكن خلال أيام أو أسابيع كنت أتعامل بشكل عادي. هكذا ظننت على كلّ حالٍ. لم أكن واعيًا بأي اعتماد عليه. لدرجة أنه لما حصل معي أول انهيار كبير بعد أقل قليلًا من سنة لم يخطر لي في الأول أن موته سبب رئيسي.

كانت الدنيا تغيّرت من جذورها. اقتُلعت جذورها. «وما استغربتْ عيني فِراقًا رأيته، ولا علّمتني غير ما القلب عالمه». بعد موت أبي لم يصدمني شيء. ومع أن أشياء كثيرة أوجعتني، لم أستغربها أبدًا، لا هي ولا الوجع.

أنا لم أتوقّع أن يذكّرني المتنبي بفجيعتي في أبي. أبيات كثيرة جدًا أعادتني إلى البلدة التي كتبت عنها والضياع الذي أصابني بعد سنة. وأخرى ذكرتني بغربتي المبكّرة في بلدة كان في هوائها رائحة كيميائية كريهة في شمال إنجلترا حيث ذهبتُ

أدرس. وقتها لم أكن مررتُ لا بـ ١١ سبتمبر ولا بالربيع العربي. ومع ذلك كنت أحمل ثقل الكون على رأسي. الآن مر عشرون عامًا. ورغم أوجاع السنين وإصابات الملاعب حِملي أخف. هناك حروب يومية وهناك ورطة الأبوة. أبوتي. كما أن هناك مصارع الطموح الأدبي بلغتين. لكني كبرت كفاية لأعرف ما يجب أن أحمله. أضبط وزن رأسي وقد نقيّتها ثم أقلعتُ عن التدخين. لكن الرياضة، العوم يفتح مجالًا للتذكر. وفي هذه المرحلة بالذات.

أتذكّر أبي كثيرًا وأنا في المترو. أتصوره في شارع رمسيس ويداه معقودتان خلف ظهره. أمام بيت أمي في الدقي أسترجع ضحكته. وعندما يضربني بيت في وجهي أتخيّل نصًا عن حياته. نص مكتوب بنفس اللسان المضبوط المصقول على قديمه؟ الزمن رياضة بدنية. وعشرون عامًا يجب أن تكون كفيلة بتقوية العضلات. لكن لحد الآن أخاف أن أكتَب عن أبي فأستغل آلامه أو أصنع له صورة كاذبة. حاجتي إلى مواجهة ما يخزيني أنا، هي طريقي الوحيد إليه. عندما حاولتُ أن أناديه في الماضي لم أوفَّق. ليس لأنه يرفض أن يجيبني ولا لأنه سيعنّفني إذا جاء. كل الحكاية أن أي سرد إما أن يتحوّل إلى حفلة جَلد ذات أو يزيّفه.

أبي كان قارئًا وصديق كُتّاب. كان مؤرخًا وسياسيًا محبطًا. لكنه كان مريضًا نفسيًا وزوجًا باردًا وشخصًا لا يعيش قناعاته. وكان شيئًا آخر لا يعرفه إلا هو. الأكيد أنه تفادى الأبوية بخفة باهرة.



أقرأ المتنبي وأكتب قصائد نثر كأنها ترجمة لأبياته. وأنا في زحمة المترو أفكر في زمنه كذلك. يبدو لي أنه جنون رسمي تصوُّر أننا يمكن أن نفهم، دعك من أن نحلّل أو نُقيّم. أن نقول مثلًا: هذه وحشية، هذا نفاق، هذا جهل، هذا تسفيه لقيمة كذا.

يبدو لي أن في ما كتبه عبد العزيز التويجري أو محمود شاكر أو العقاد معرفة بالعقاد ومحمود شاكر وعبد العزيز التويجري أكثر بكثير من أي معرفة بالمتنبي.

لا أقصد أن أنفي فوائد البحث التاريخي طبعًا. لكن المسائل في سياق حياة فرْد يكتب شعرًا تبدو لي أبعد وأغرب من أي فهم. فضلًا عن التعقيدات الداخلية للمسائل.

دعك من تفاصيل الخيل والجِمال ومعدات الحرب والأماكن. بعض أصعب ما يعطّلني في الديوان الألفاظ المرتبطة بهذه الأشياء. خطو الإبل. أنساب الرماح والدروع. تضاريس البادية. ألوان وأشكال تجيء دليلًا على حالات اجتماعية أو سياسية. وكثيرًا جدًا أفكّر في معنى السفر. كيف يبدو يوم عادي مع الأكل والشرب والمعمار والملابس؟ الغياب التام للتكنولوجيا. خلاف اللقاء الشخصي، التواصل الوحيد المطروح رسالة تستغرق زمنًا حتى تصل. دعك حتى من الأعراف والعلاقات. كون الغالبية عبيدًا والنساء صدورهنّ مكشوفة في الشوارع. ارتباط الكلمات برنّة كل واحدة في الحلق سواء رأيتَها مكتوبة أو لا. الجنس، ضروب الغرام. تخيّل

نجوم الليل مثلما تراها عندما تطلع سفاري في الصحراء لكن داخل المدن وكل يوم. طزاجة الدم المسفوك أمام عينيك. لكن دعك من كل ذلك ومن نقاء الهواء. ماذا عن الإحساس بالزمن؟

«ويومٍ كلَيلِ العاشقين كمنتُه، أراقب فيه الشمس أيّانَ تغرب».

طه حسين يتكلّم عن زمن المتنبي بألفة وبساطة تنسيك فعلًا. ومثل أي مؤرّخ حديث يتصرّف كما لو أنه ممكن أن تتسلّل إلى تلك الأزمنة وتتعامل مع أهلها بأريحية بلا ترتيب. طه حسين بالذات مثير لأنه لا يحبه. يعترف بعبقريته. لكنه لا يحبه. ويقول إنه لا يعرف لماذا هو حاضر أكثر من غيره في القرن العشرين. «حاولت وما زلت أحاول أن أستكشف السرّ في حبّ المحدثين له وإقبالهم عليه، وإسرافهم في هذا الحب والإقبال». أنا طبعًا لم أقرأ من الشعر القديم واحدًا في المائة مما قرأه طه حسين. ربما يستهزئ طه حسين برأيي وربما يكون محقًّا. لكن يبدو لي السرّ في أن الشعر يتجاوز معناه المقصود. بالضبط كما حصل مع مسرحيات شكسبير، على مستوى آخر. ومع ذلك هل يتخيّل طه حسين حقًّا شكل الحياة في تلك الأيام؟ أنا أصلًا عندي مشكلة في تخيل شكل الحياة أيام طه حسين!

في إحدى السِيَر قرأتُ أن المتنبي لما علم أن خادمه يتجسّس عليه لصالح ناس تكرهه شج رأسه بالسيف. لكني قرأتُ أيضًا أنه قبل أن يهرب من بلاط كافور خرج إلى الصحراء يغرس الرماح على مسافات منتظمة ويترك ما يحتاجه من إمدادات في

الطريق إلى بلبيس حيث شخص يحتمي به. ما هذا؟ مع أن كل ذلك في سياقه التاريخي سلوك مفهوم ومبرّر وطبيعي.

أكثر من طرف لما سمع بالمشروع أشار إلى أني أظلم نفسي. لم يذمني أحد مباشرة لكن لسان الحال يقول مَن أنت مهما عملت لتقارن نفسك بالمتنبي. الحقيقة أن هذه فقط طريقتي للقائه. أن أرى ماذا يمكن أن يعنيه كلامه الآن هنا. شخصيًا، كشاعر. لا يمكن فهم زمنه لكنه ترك شعرًا. وهذا كل شيء.

«لكنْ ماذا نلاقيه من عصافيرَ تُقلع في حلوقنا؟» هكذا كتبتُ عن البيت المأخوذ منه العنوان. «لقد جاءت من بلاد القلق والحركة وهي قادرة على تغيير الواقع عن طريق تجاوزه عبر سِحر الكلام، الأمر الذي يتيح للشاعر سبل النَصْب والخديعة سواء استخدمها أو تعفّف. هنا شاعر يصرّح بهمّه وتقلّب فؤاده. لكنّ ما نمسكه في أيدينا لا الشاعر ولا التصريح، ولا حتى معاني الكلمات كما هي مشروحة في المعاجم. فقط الشعرِ يقول نفسَه بطَرَب لا يُصدَّق».

السؤال الذي أعجبني كان مختلفًا قليلًا. لو تمكّن المتنبي من الرحيل في الزمن. لو قرأ الذي كتبتَه ردًّا على كلامه. ماذا يمكن أن يقول؟ جوابي التلقائي أنه لن يراه شعرًا ولا حتى سيعجبه كنثر. لكني فكّرتُ أكثر ووصلتُ لإجابة ثانية.

إن المتنبي لو قرأ كلامي سيحتاج إلى شرح مثلما يحصل معي وأنا أقرأ كلامه. في كل سطر سيجد كلمة تحتاج إيضاحًا. أوقاتًا سيظن أنه فهم وهو لم يفهم. وفي كل خمسة أو عشرة سطور سيجد سطرًا فعلًا كأنّه صيني.



مر الشتاء وأنا أعوم في المساء. أذهب إلى العمل في المترو ولا أصحو مبكرًا. من سنين وليس في حياتي إلا اثنان أو ثلاثة قريبين جدًا جنب أمي وأُسرتي. الآن ألاحظ أني أحنّ للناس. ليس على فيسبوك لكنّي جاهز للتعامل. وأفكّر كيف. في النادي أشتغل وأتمشى. قرأت وليام غاديس ثم موبي ديك. عظيمة موبي ديك. اكتشفت الساونا. ومع العرق والانتعاش عرفتُ أني جاهز أيضًا للكتابة.

على شبكات التواصل أشياء بشعة. كل أنواع الغباوة بدعوى الفضيلة. كل أنواع الشر. العالم قبيح جدًا والناس أوباش. لكن لعل الحياة وراء باب جانبي. لعل في الدنيا احتمالات لا تزال.

قدّمت على منحة لإنجاز ونشر كتاب كامل من القصائد المكتوبة كرد فعل للمتنبي. مرة أخرى لا فخر ولا فرح. فقط حماس متواضع يشبه حماسي لقراءة الديوان. عندي شعر أكتبه. ربما يكون عندي أشخاص ألتقي بهم.

في الربيع هجَمَتْ قصة كورونا وقفلوا المدارس والنوادي. حتى اللحظة لم أرجع لركوب المترو.

طلبوا مني نماذج للقصائد غير الاثنتين اللتين قدمتهما فكتبت ثلاثًا أخرى. كانت الأبيات جاهزة. ووجدتني قادرًا على إنجاز القصائد خلال يوم ونصف. ساعتها تأكدتُ أني سأكتب. سأكتب بالعربية. ربما بعربية لم أكتب بها قبل ذلك. لأول مرة بدا أن في الأزمة شيئًا إيجابيًا.

خلال سنة غيّرت حسابي على تويتر. بحسب تعليمات وكيلي الأدبي الجديد، من كندا. في الماضي كان حسابي عبارة عن مساحة مزدوجة اللغة لنشر مواد الموقع. ولم تكن تُلاقي رواجًا. الآن أصبح محطة إعلانية بالإنجليزية فقط تختص بشغلي وقراءاتي وتحافظ على حد أدنى من التفاعل. لا سياسة ولا آراء. فقط الكتّاب الذين أحبهم، مع شيء من الفوتوغرافيا والفن. نزعتُ من الحساب أي انحياز شخصي أو تورّط عاطفي. المشكلة أني لا أعرف أين أروّج لشغلي العربي ولا كيف أرجع إلى الناس في القاهرة.

في نهاية الصيف جاءني خبر قبول طلب المنحة وأنا جوار البحر. أحلى شيء في المصيف أني أستطيع أن أعوم. بحر الساحل الشمالي مستحيل لكن هناك حمامات سباحة. أول منحة أتقدم لها في حياتي. لم يتغير رأيي في شبكات التواصل. لكن مع الأخبار الحلوة أريد ناسًا. بدا أن الوجع خفّ وأنا أسأل نفسي من أكون ولماذا أنا هكذا. «كأنّ الحزن مشغوف بقلبي...».

لا أنا ولا مهنتي ولا بلدي. الإنسانية كلّها تنهار. تنهار حقيقةً لكن ليس كما يتكلّمون على الإنترنت. الشيء الذي يعطي الحياة قيمة هو الذي ينهار. الحب أو الوعي بالموت. سُكنى الزمن. الشيء الذي فيه سر الشعر. عندي قدرة على استدعاء هذا الشيء رغم انهيار الإنسانية. ربما لهذا كان يتقشّر جلدي وكنت أُخرج أعضائي أختبر قوة احتمالها. الشعر سبب النزيف.

في القاهرة الشوارع زحمة ولا مكان تجلس فيه أو تذهب إليه. حاولتُ أن أتريّض داخل البيت. بضع مرات اصطحبتُ مراد وقسمت إلى أسفل ورحنا نجري حول عمارتنا في دائرة واسعة. كان مراد يتأخّر دائمًا، ثم يشتكي من أني تركته. أكاد آكله محبة وهو يعاتبني بكلامه المكسّر. عندما يتأخر مراد تتأخر معه قسمت. كنت ألفّ في مكاني أو أجري عائدًا إليهما لأبدأ من جديد. الشوارع خالية في المساء.

بدأت أركّز في تعلّم الإسباني. أحبه وأعرف منه شيئًا من زمان. ما زلتُ أقرأ المتنبي.

كثيرون تركوا فيسبوك مثلي. لا يمكن أن أرجع إلى هناك. لكن ماذا عن انستغرام مثلًا؟ كنت جرّبته قبل ذلك لأغراض فوتوغرافية لكن مللت منه بسرعة. الآن بعدما أنجزت عشر قصائد قررتُ أن أفتح حسابًا جديدًا ألتزم فيه بالعربي. وأستعيض بمتابعيه عن فيسبوك. فترة الإغلاق انتهت ورجعت أعوم وأنا أقرأ. أملي أن أظل خارج التاريخ. انستغرام سيكون حافزًا على العودة إلى التصوير.

في شريط الصور المستطيل أبحث عن الأصدقاء والمعارف. أحاول أن أستشرف مَن يمكن أن يكون حليفًا. جمعتُ أحدث صور الورش والندوات. وصلتني بضع رسائل مفرحة من قراء قدامى كانوا يبحثون عني. صُحُفيون يسألون ماذا أكتب. وبدأتُ أكلّم الناس.

أكثر من خمس سنين مرت منذ بادرت أحدًا بالكلام.

الأجواء مكهربة لكني بحسن نية أحكي عن شغلي. أسمع من الناس ماذا يفعلون. أُهدي صورهم قلوبًا بغض النظر عن جودتها الفوتوغرافية. ومبسوط بأني آخذ وأعطي ليس مع نفسي ولكن مع آخرين أتعرّف عليهم... حتى عقدتُ أول موعد مع شخص جديد. حسبت الوجع انتهى وهو بالكاد يبدأ.

اخترت مقهى لم أذهب إليه من سنين. وكان قلبي سمكة في صدري وأنا ذاهب إليه.

يوسف رخا

مصري يكتب بالعربية والإنجليزية.

قال أنطون شماس عن روايته الأولى «كتاب الطغرى» (2011) إنها «إنجاز مذهل» يحقّق أحد أحلام الروائيين العرب المحدَثين منذ منتصف القرن التاسع عشر».

بين مؤلّفاته:

- كُتيّب «بيروت شي محل» (2006) تصميم محيي اللباد.
- مجموعة «كل أماكننا: شعر/ نثر» (2010).

وكـنـتُ إذا يممتُ أرضـًا بعيـدة سريت وكنت السرَّ والليلُ كاتِمُه

«أظن أن هذا الكتاب هو محاولة جديدة لإجابة سؤال ما الشعر، وأنا مشغول بهذا السؤال المستحيل منذ بدأت أكتب. إنه موجود في رواية «التماسيح» حيث تُطرَح فكرة أن الشعر - وهو في ذلك أشبه بالصمت أو السر - هو الخطاب الوحيد الذي يمكن أن تكون له سيادة في مقابل خطابات مُستعمَرة من جانب المكان والزمن إن لم يكن الأيديولوجيا أو القناعة، خطابات منبطحة لـ«المعنى». على عَكْس الكليشيه والنكتة والشعار، الشعر أو الأدب هو الخطاب الذي يجعل من اللغة وجودًا أو حضورًا أقوى وأوسع من الشرط المادي أو اللحظة التاريخية أو حتى حدود شخص الكاتب».

هكذا يصف يوسف رخا نتاج علاقته الآثمة بديوان المتنبي، والتي تزامنت مع دخوله فيما قد يُسمّى «أزمة منتصف العمر». هنا عشرون نصًّا شعريًا قصيرًا كل منها بمثابة الجواب لقرار يمثّله بيْت منتقى لـ«الدهر المنشد» كما يسمي المتنبي نفسه، يليها نص سردي طويل بالغ الحميمية، يحكي فيه عن الظروف الحياتية والنفسية المحيطة باللقاء بينه وبين الشاعر العباسي والرحلة التي قطعاها معًا.

ISBN 978-977-828-060-9

طبعة دار التنوير مصر


daraltanweer.com
بيروت . القاهرة . تونس
